



تجليات القدر
رواية

ليندا الأعرج

تجليات القدر
ليندا الأعرج



دار الكلمة للنشر والتوزيع
غزة - فلسطين
هاتف: 00970-2827792
جوال: 00970-0598877444
Dura.atef@gmail.com
kalemabook@gmail.com

تصميم الغلاف: www.salah.ps
لوحة الغلاف للفنان: د. خالد نصار

جميع الحقوق محفوظة

أي اقتباس أو تقليد أو إعادة طباعة أو نشر بشكل إلكتروني أو فوتوغرافي أو غيره دون موافقة كتابية من الناشر، يعرّض صاحبه للمساءلة القانونية.

البرنامج الوطني لدار الكتب الفلسطينية
بطاقة فهرسة أثناء النشر
وزارة الثقافة - الإدارة العامة للمكتبات والمخطوطات

الأعرج، ليندا ديب

تجليات القدر/ ليندا ديب الأعرج.

غزة: الكلمة للنشر والتوزيع، 2017.

(106) ص، 15* 21 سم

رقم الإيداع: 2017/459

تجليات القدر

رواية

ليندا الأعرج



دار الكلمة للنشر والتوزيع

الإهداء

إلى الذي حمل بعضاً مني فيه...

جاستين

أخوض عراكاً قوياً مع نفسي ساعات من المعارك المُخيفة، أخرج مهزوماً، لربما غداً في القدر نجد تناثر الجسد، وأتيقن أن روعي هي الضحية الوحيدة في هذه المعركة. حياة عنيدة. القدر يجمعنا في غرفة واحدة في ليلة ما، ينتزع من جسدي ثيابي ولهيب النشوة قاتلة حينما نحاول الخروج من لعنات القدر بأمان، بنصف عين نرى الحياة، فننتشبت بها، ونحاول ألا نكون شبقاً في ذروة الليلة فقط، نغير وجهاتنا، وأمانينا، ونضرب الحيطان برؤوسنا، ونهاتف لعناتنا، وننتحب فيرتد الصوت مُعلنًا النجاة، لعل مدخل النجاة صغير، ولكنه يتسع للعبور إلى أجزاء حياتنا المبعثرة، سكون الألم، وارتجاف الشفة السفلى، البكاء أمام المرأة وشريط الذكريات، شعور بيد تقبض على أيدينا بقوة ليأتي بنا إلى مكان يهواه القلب.

عزيمة لن تشيخ تُعذب آلاف المرات في اللاشعور، تُرهق فنتساءل كثيراً، من منا سيمسح دمع الآخر؟ من سينحني للآخر إجلالاً حين اللقاء وحين مواعيد الفراق؟ من سيبتسم ليُعيد مجد ابتسامته تُديم العُمر الشقي؟ عمرٌ من سيغلق خط الهاتف أولاً حين انصهار الحب؟ تأخذ الرياح بقلوبنا فنميل على الإرادة نرسمها مجدداً، المجد لكل تلك الهاويات التي تُحيينا ونحن أموات.

شبقٌ عابق في عُمره الستة عشرة ربيعاً، ونجوم تتسكع بين أروقة الجمال، حينما ولد في تركيا كانت تتراقص النجوم فرحاً بأناقته وذكائه الذي تميز بها قمرٌ مُنتشٍ في ليلة ظلماء، بنرٌ يروي ظمأ العالم من

في القصر

سنابل قمح قانية من خصلات الشمس، تزهو فينا الأعمار،
وقضايا ملحة نبحت عنها في طرق الحياة الطويلة، ويومٍ من الغياب
يفقد فيه القلب أمانه، وصداقته أمن يسدد انشقاتي، وهو القمر والنجوم
حوله تتراقص معلنة ليلة السهر. صوت الحارس على الباب:
مرحباُ أنرت الجنة، وحزن جاستين أذبلها وأنت في طريق إليه لا
تنسَ سردها.

جنان في وصفها ومروج خضراء واسعة تتوسط بين ثنايا أرضها
زهور ربيعية وشتوية وخريفية، وطريق تزينه سجادة حمراء اللون على
طوله تشطر الحديقة إلى نصفين متساويين، في الجانب الأيمن من
منتصف الحديقة، مسيح كبير الحجم دائري الشكل وبعده بقليل، زهور
تقابل الحب وتنسي الحقد تكلك قلوب عاشقين حين فراق، تماثيل مثل
حراس لكل زهرة ثمرة، وورد من كل بلد وموسم زهرة، وسيارة فورد بيضاء
ذات نوافذ داكنة اللون.

مع وصول خطواتي إلى البوابة الداخلية للقصر، كان هناك البهو
واسعاً، وكانت الأرضية الفسيفسائية الفاخرة تلفت الأنظار إليها وبشدة.
وكان هناك سلم ضخم في المنتصف يقود إلى عدة غرف تحيط بالبهو
ومدعومة بأعمدة عريضة بيضاء، قررت الصعود إلى الدور العلوي
عن طريق السلم المغطى بالسجاد الفاخر الذي ينتهي بردهة طويلة
باتجاه اليمين، ومن بعيد ترى غرفته قصراً في قصرٍ مملكته المستقلة،

العلم، وبيئة ثرية، وشركات تُصنف في المرتبة الثالثة على مستوى
العالم.

في تنقلاته التعليمية ذكاء، ليصل به العلم ترفيعاً إلى مرحلة
الثانوية العامة في سن الرابعة عشرة بتقدير 89.5 في المائة.
نعم، لقد رأى الحياة أنصافاً منصفة حتى رؤيته لنفسه! بصعوبة
شديدة فهمتُ حديث الخادمة عندما أخبرتني بالنتيجة، فوقع الخبر شل
تفكيري، وأرجع سنوات عمري توقف الزمن! لم أعد أشعر سوى بنبضات
قلبي، وصوتها يشدد وكأنها ستتوقف.

ولكن لحظة! سأواجه التجربة بدموع عيني، وقلبي الذي يلفظ
أنفاسه الأخيرة تحت ركام هذه النتيجة المؤلمة التي تحاول خنقي.
سأسمح لأشباح سنوات التفوق بأن تؤرقني، وأنياب زملاء وهم
ينظرون إليّ بسخرية ستتغرس حادة في أعماق روحي، وضحكاتهم
تقترب مني وتطبق على صدري، وتضغط، وتعتصر آخر قدرة لي على
التماسك، فأصرخ، ويرتد صراخي إلى صدري، وأنتحب، ويسمعونني
من يلتقون حولي من الخدم في القصر. حسناً أظن أنني سأبتسم
ابتسامة استنكار، هذه هي القوانين!

عزل نفسه لعدة أيام لم يغادر غرفته؛ لشدة حزنه نسي أن يسأل
عن صديق روحه، وعلامته في المرحلة الثانوية. وصديقه لم يكن يملك
نفس القدر من الذكاء، فلقد كان جاستين يساعده في تخطي مراحل
الدراسة والاهتمام بها رغم أنه مهمل لها.

يتفجر. انسابت دموعي على وجهي، حميمة روت عذوبة ضعفي ووهني.

لا أستطيع أن أقول أن الربيع قد أقبل، فالزهر في قلب الصخر لم يذبل طوال فصل الشتاء، ولم يختفِ اللون. ألوان آمالك وأحلامك ستماً فراغك، لن تستطيع السحب الكثيفة أن تلقي بوحشيتها على أزهار الجبل ونباتات الأرض.

فربيعك قد أقبل، وأيامك أشرقت مع الشمس التي لم تذب الثلوج فوق قمم الجبال.

كانت هذه كلمات نيكولاس لجاستين وهو ما يزال يحتضنه. كم أنت أبله. ألا تقول لي تفضل بالجلوس؟

آه! تفضل، قالها جاستين وما زالت عيناه تغرقان بالدموع... حاول أن يمسحها وأن يوقف دمعه ولكنه لم يستطع. بدأت مرة أخرى بالبكاء...

ها نحن ذا من جديد!

عالمه الذي يأوي أحلامه، ويحتضن آلامه، ويلامس آهاته. لم يستجب عندما استأذنته بالدخول، فدخلت. كانت الغرفة رحبة، وتطل على منظر خلاب لشاطئ البحر، وسرير مزدوج فاخر.

وهلة النظر الأولى إلى الغرفة ستجعلك تظن أنها تنقسم إلى قسمين أو لعدة أقسام: مكتب كبير مصنوع من خشب الماهجوني، وأريكة جلدية وحدها تساوي آلاف الدولارات ومنضدة رخامية، وغرفة صغيرة في جزء آخر مفصول عن باقي أجزاء الغرفة تحوي ملابس، وأحذية، ومكملات التجميل والأناقة من أرقى الماركات العالمية. ما لم أبالغ في وصف الحمام الخاص به فهو قصر ملكي.

لم يكن نيكولاس يبالغ في وصف الغرفة، فقد كانت كأنها هبة سماوية لا تأتي سوى للمحظوظين فقط. عالم خيالي لا يجرؤ أحد أن يقتحمه.

كم أنت محظوظ يا صديقي، يا لك من إنسان!

أصبحت نبضات قلبي مضطربة، ووجهي مرتعش، وساقاي مرتبكان، فقدت القدرة على التصرف. قررت الذهاب بلا رجعة، ركضت بلا توقف.

ما أن أدت وجهي حتى وجدت شاباً طويلاً ونحيفاً، شعره مصفوف إلى الخلف، وذا بشرة قمحية اللون وعينين ذي لمعة وبريق محبب. يسد طريقي. وضع يده على كتفي، جذبني إليه وهو يضغط عليّ، اقشعر بدني لم أستطع أن أتحرك أو أنطق. شعرت أن قلبي

صديقي

لم أستطع أن أفعل له شيئاً سوى الضغط على يده وترديد كلمات لا معنى لها، مثل لا تفعل في نفسك هكذا، أنت متفوق، اهدأ... في بعض المواقف أشعر بتفاهة أي كلام يقال فيها مهما كان صدقه. جفف دمعته وحاول أن يتحدث...

أعرف أنني متفوق لكن تقدير جيد جداً ليس ما توقعته، وأن هذه هي القوانين، ولكن أي قوانين هذه التي تحرم طالباً من الحصول على حقوقه، أي قوانين لا تعتنى بالإنسانية أي شيء، حرمت من علامة أستحقها.

قتلوني، عصابة قلبي تؤلمني، وأريد أن أقتلهم جميعاً، وأريد أن أراجع أوراقى وعلاماتي. ألا ترى أنني أستحق؟ أغلقت بعيني سنوات تفوقي الماضية وسنوات عمري القادمة، لم أحلم يوماً بهذه اللحظات. ألا تظن أنها مغامرة بالنسبة لك؟

ابتسم جاستين باستنكار، وما المغامرة في ذلك؟

هناك فروق، أنا أستمع لك بإرادتي، أنت تحمل نفسك الذنب على شيء ليس بيدك أو بيدي.

انظر لإحساسي وأنا أذفَع ثمن الفقر، إحساس يختلف، أسعد جداً بالماء الساخن، والبيانو الذي أهدتني إياه والدتي، أشياء صغيرة وبسيطة ولكنها مفرحة. شرب رشفة من الماء وتحنح...

جاءني صوته مهزوماً، هذه المرة الثانية التي أشعر فيها أنه فقد شيئاً ثميناً بالنسبة له. ارتسمت ملامح الهزيمة على نبراته وعلى مخارج ألفاظه.

تشبث بي، هو أنا وأنا هو، أعلم أنني أتحمّل نتيجة هذه العلامة وما وصلت إليه، ولأنني لم أستطع تقبلها. لكنك إنسان له عقل وقدرة، أليس كذلك؟ وماذا الآن؟

أمسك نيكولاس يده، وقال: ليس هناك ما تسمى نهايات في هذا العالم الصغير، الجامعة تنتظرنا والخلف مؤلم يا صديقي. ليس لدينا الوقت لنرجع إلى الورا، برغم جراح نيكولاس وعلاماته غير الممتازة وحالته المادية المتردية، فقد كان من الطبقة المتوسطة إلا أنه كان يعيش حياته كأنه آخر يوم بها، بعكس جاستين تماماً.

فابتسم جاستين لما يقوله صديقه، وقال: أنت الوحيد الذي تستطيع التأثير عليّ. فلتعش روحك العاشقة للحرية والحياة، فخرجا وتمشيا قليلاً.

أمي

حين وصولي إلى القصر وبعد ركني للسيارة في موقف السيارات، وجدت والدي في مكتبه، ذهبت لألقي عليه التحية، وكأنه كان ينتظرني.

- مساء الخير.
- أهلاً جاستين.
- جئت لتحتيتك، وسأخذ إلى النوم.
- أريدك ألا تقترب من زوجتي، أنا أحذرك للمرة الأخيرة.
- ماذا تقصد هل تمارحني؟
- لا، بل في كامل وعيي.
- ولكن أقسم لك بروح والدي أنني حتى لا أراها كيف تتهمني بأنني أتحرش بها هذا اتهام باطل، وأنت تعرفني جيداً.
- أتقصد أنها كاذبة؟
- لم أقصد ذلك، ولكنها تخلق الأقاويل؛ لتخلق بيننا شجاراً
- كيف أصدقك؟ أضحكنتي. أتقسم بروح والدتك وهي لم تكن يوماً أمماً صالحة لك؟
- كفى يا أبي يكفيك هذا يكفي.
- خرج جاستين بسرعة وهو يبكي.

ذهبت إلى غرفتي استكملت سلسلة الأفكار الغائلة التي لن تتركني بسهولة. قررت أن أستعجل بحمام ساخن لعلي أرجع لذاتي وأستطيع تجهيز نفسي، لفنتني صورة أمي، فاتجهت نحوها، كم هو مؤلم أن

ألم

طريق طويل ومظلم من لحظة عودتي. سرت عدة أمتار حتى فكرت بالعودة، فالشمس لم تشرق بعد والناس نيام، نظرت خلفي وجدت الوحشة، وقفت مكاني فالوحشة خلفي وأمامي. السواد يغلق الشوارع، والشجر الكثيف المتراس على جانبي الطريق يبدو كالأشباح. لم يكن أمامي إلا مواصلة السير في الطريق، وصلت مكاناً للجلوس أجزر أكياس الرمل المعلقة في أقدامي وأسمع رعشات قلوب كل الخائفين في نبضات قلبي، فلسعات برد الفجر بدأت تنخر عظامي.

امتدت يد صغيرة تربت على ركبتي، يد زرقاء من شدة البرد تحمل خبزاً وبيضاً مسلوقاً. انطلق صوت ضعيف صغير كزقزقة عصفور يرتعش من وقع المطر، خذ خبزاً وبيضة، صوت لم يعاشر الدنيا لأربع أو خمس سنوات، استنطقه جوع البرد الذي لا تشبعه كسرة الخبز الجافة الملقاة في سلة من ركن في مجرة مظلمة. لبت الفقر إنسان لكنا أفرغنا طاقاتنا عليه وواجهناه. أيا حاقداً كف أذاك وأرحل إلى ما وراء السراب، كل يوم منك يولد الصباح عُمالاً يخلعون قماطهم ويرتدون ثيابهم الرثة يخرجون حاملين بضاعتهم وزنها العددي أكبر من سنوات عمرهم.

ما إن مددت يدي إلى جيبي، حتى انفجرت الأرض بأطفال آخرين يحملون بضاعتهم، وكلهم لا ينطقون إلا جملة واحدة. اشتر مني، الله يخليك الأيدي الصغيرة التي لم تلمس إلا الخواء أزلحت بعضها في صراع من أجل ما سأقدمه أنا!

والتحصيل. لولا تفوقي في الدراسة وتشجيع المدرسين لي لكنت قد عانقت الموت ألماً. كم هو مؤلم هذا الشعور في أعماقك أنك تفتقد شخصاً بلغ حد الألم مع اليقين الثابت بأنك لن تحتضنيه أبداً. أفقد أناملك تلاعب خصلات شعري، وأنا طفل... آه... من الفراغ المميت الذي يخلفه موتك، إذ يظل رغم مرور السنين يحفر ويحفر... أخاف قراراتي، لكن الموت هو الموت استئصال دون قرار مسبق.

كتب ورقة ووضعها على المرأة، أراني بعد فقد الرؤيا!

بعد انتهائه من تصفيف شعره ذهب لاصطحاب نيكولاس. وصل جاستين إلى منزل صديقه، منزلٌ متسمٌ بالبساطة يعانق فيها أمه. جذب نيكولاس أنه قد حلق ذقنه، وأن قسماات وجهه باتت تخلو من الكآبة السابقة. سُرَّ والد نيكولاس بوجوده، وأعطاه مكاناً في الكرسي المقابل له.

- كيف حالك؟

نشعر بقرب الصور منا، وبعُد من هم أحياء عنا... أمي صورتك، ويا لهذه الغربة التي تركتها بداخلي... ودعت طفولتي في العاشرة من عمري عند وفاتك بذلك الحادث المشؤوم. لا زلت أسمع ضحكاتك... أنادي عليكِ ماما... ماما... لماذا لم أمت وقتها؟ لماذا لم أمت بدلاً عنك؟

آه يا أمي... كم تمنيت أن ألملم شظايا طفولتي التي كسرت كفنينة النبيذ الذي يدمنه والدي... كم عشقتِ التضحية، فقد عشتِ ما عشتِ من الحياة لأجلي فقط، تتحملين والدي ونوباته، كم كنت وحيدك وديناك يا أمي. أشتاق ليديك التي تداعب وجهي كل صباح، ولا تغرب قبل أن أنام، رحل كل شيء جميل. رحلت... يا أمي وزادت حلقة أيامي وعمري. يهياً لي أنني لم أكره أحداً في حياتي مثلما كرهت والدي... أضحينا بعد وفاتك مثل عدوين مكرهين على العيش تحت سقف واحد. هو من يتحمل مسؤولية موتك أمي، لا تخافي أمي لن يستطيع أن يتقرب مني وعاطفته ناحيتي لن تزيدني إلا نفوراً... لو ترينه يا أمي، إنه مثل القاتل الذي لا ضمير له، لم يقلع عن الكحول... ألقى بضميره في بئر مهجور!

عندما تزوج بعد شهرين من وفاتك، تلك المرأة العاهرة، كفرتُ بكل البشر، آه يا أمي كم كانت تقسو عليّ. يا ليتك يا أمي ترينها. كلما كبرت كبر إحساسي بالدخيل، ومعه تشبثي بهدف واحد، هربت إلى شرنقة الكتب، وسكبت كل طاقاتي وثورتي في الدراسة

الحقيقة

جاءه الصوت ليخرجه من شتات أفكاره. ثمة تجارب في الحياة لا يمكن أن نخرج منها سالمين. أمنيات بالتوفيق ودموع لا تنطق. وابتسامات دامعة. وكلمات تشجيع.

ردد جاستين في نفسه، أريد أن أراجع، أريد أن أقول لهم لا تردوا اسمي، لا تردوه فهذا يغيرني لأتقت نفسي، فأنا منشطر إلى شطرين. اقترب موعد الإعلان، كالذبيح صرت بينهم تائهاً، نسيت كل ما تعلمته، كمن ظل طول حياته يجري لاهناً. قلبي وقع في قبضة حديدية شريرة ظلت تضغط عليه، لا تريد أن تخنقه ولا أن تخفف القبضة، إحساس بالخوف يشل خطواتي، وكأنني أسير إلى حبل مشنقة. أحرص حملتي قدمي إلى المسرح، أشعر بتعب السنين وكأنني قطعت المسافة في قرن، داست على أجزائي، صرخت قبل أن تخرج صرخة من بين شفتي، ارتدت إلى قلبي تسحقه وتسحقني... فتشبثت بالأرض، التفت إلى مهجة القلب لعل نظراته تستجديني، شفتاه تتحرك بلا توقف ويدها تلوحان لي وتقول هيا... هيا، إنه طريقك وأحلامك.

يا لهذا الحفل! حفل تكريم طلاب الثانوية الأوائل، فكان جاستين الأوائل على مستوى تركيا. وقف الحضور جميعاً، والشخصيات على المسرح المخصص للتكريم، فصفق له الحضور بحرارة، وصعد جاستين وسلم على الموجودين، والتقطوا له ومعه بعض الصور؛ لتكون في المجلة اليومية كخبر مهم لصباح الغد. بعد فترة التفت جاستين إلى

المكان الذي كان يجلس فيه نيكولاس ولم يجده فذهب يسأل عنه. فقد أخبروه أنه لربما غادر الحفل.

قبل محاولة الاتصال، بهت متمماً قد بدأ لعبته القذرة من جديد لن يتغير.

وجد هاتفه المحمول أيضاً خارج نطاق التغطية، بدأ القلق يتسلل رويداً رويداً إلى جاستين، أين من الممكن أن يذهب؟

بحث مطولاً لم يقنع بحديثهم أنه غادر الحفل لكان فضالاً عليه أن يبقي هاتفه مفتوحاً، بعد وقت خطر بباله وجوده في دورة المياه لشرب الخمر والتدخين بسبب المنع في داخل الحفل، تقدم جاستين إلى دورة المياه فوجد نيكولاس مُغشياً عليه.

نيكولاس، نيكولاس أسمعني؟ لحظات من الخوف والتوتر شدة ارتبأكه أنسته أن الماء قد يجعله يفيق بعد لحظات، وقف وسكب الماء على وجهه، وسأله ما الذي حصل؟ أخبرني. أرجوك! لا تخف، أنا بخير، فقد استيقظت متأخراً ولم أتناول أي طعام أو شراب إلى الآن.

متى ستكبر يا نيكولاس؟ متى ستصبح مسؤولاً عن تصرفاتك الحمقاء؟ يا لزخم حياتك! تُكسّر ولا تُجَبّر نفسك، أحاول أن أتأسى جرحي، ولكنك مصمم أن تقنعني أن الخطأ لا يمكن أن يُصحح.

إن الإدمان والانتشاء لا يمكن التخلي عنهما، ما بالك تؤذيني؟ أتعلم كم من الوقت أمضيته بالبحث عنك؟ كم من الحروب تعيش في

داخلك بالدقيقة دون مقاومة منك؟ أنتنتظر انقباض عضلات قلبك وتوقفه إلى ما لا نهاية؟

تبسم نيكولاس ابتسامة مهزومة وأسترسل، كم تُسبِل آلامي آمال، وتحييني حين القتل حياة، تُبسم في قلبي الشتات، تُعيد لي المجد، حتى في بُكائك جمال!

ما هذا بربك؟ هل هو وقت الحب؟ كم تعاني من الجفاف العاطفي يا صديقي وأنت مع النساء حتى نيكولاس، لا بأس نحيا من جديد علينا الرحيل الآن أو تريد أن تنام في دورة المياه أوصل جاستين صديقه إلى بيته، ثم رجع.

أفاق جاستين مُتأخراً، سأل زوجة أبيه عن والده، فأخبرته أنه سافر لعمل طارئ استحم جاستين، ولبس ثيابه، وخرج ليسأل عن صديقه في منزله، فطلبوا منه أن ينتظر قليلاً، وأخبروه أن نيكولاس خرج إلى النادي ليمارس رياضته اليومية، وبدأوا يقدمون له التهئة على نجاحه. وأخبرهم أنه سيذهب للقاء نيكولاس واستأذنهم بالمغادرة، وفي الطريق تقابلا وتمشياً قليلاً... قال نيكولاس:

- هل أزعجتك البارحة؟

- نعم.

ضرب على كتفه، وقال له لا تحزن إني أحبك جداً يا نيكولاس، أتذكر حينما كنا في سن العاشرة؟ أخبرك شاب أن والدك يطلبك أمام المدرسة، فأخبرتك أن لا تذهب، فلم يعتد والدك أن يأتي للسؤال عنك

أو حتى الخروج معك في دوام المدرسة، لكنك رفضت الاستماع إليّ وذهبت معه، كنت أراقبكما من بعيد وأنتما تتلاشيان، فلم أكبح نفسي عن اللحاق بك لأنني على يقين بأن هناك شيئاً مريباً سيحدث، هاجمك بكلامه البذيء وكشف عن نواياه المخفية كم بكيت يومها وبدأت أرمي عليه الحجارة بعدما حاول جرك إلى السيارة لحسن حظك أن هناك حجراً أصاب عينه مباشرة فأسرعت بالركض والصراخ، ترتجف من الخوف يا لك من جبان!

- أتتهزأ بي؟

- نعم لكنني مُتفاجئ كيف أصبحت رجلاً، أعتقدت أنك رجل بعقل فتاة!

- تباً لك المهم أنك النجمات التي تتراقص حول القمر في ليلة ظلماء، أنت حارسي يا صديقي.

ضحكا...

والد جاستين يمتلك أسهماً في الجامعة التي تعتبر من أشهر جامعات تركيا، بالرغم من علم جاستين أن هذه الجامعة فريدة بالتعليم الإلكتروني، إلا أنه رفض الدراسة فيها بسبب وجود أسهم باسم والده، حمل هاتفه...

ساعتين من الحديث والنقاش دار بينه وبين نيكولاس على التسجيل الجامعي، وانتهت باقتناع جاستين على التسجيل في الجامعة التي

يحمل والده أسهماً فيها، الحياة تستحق منا التنازل لنرى أنفسنا نملك الشجاعة وأقنعه بذلك.

في صباح اليوم التالي استعد جاستين إلى الذهاب لأول يوم في الجامعة، وذهب إلى صديقه، واصطحبه وذهبا وهناك استقبلت الفتيات جاستين استقبالاً باهراً لشدة جماله. كان طويل القامة بجسم عريض، وعضلات بارزة وعيون بنية براقية، وشعر بني أصفر وصديقه متوسط الجمال، ولكنه يكره النساء ولم يولِ الفتيات أهمية في ذلك اليوم، مما يعطي طابعاً عنه لدى طلاب الجامعة أنه متكبر ولكنه عكس ذلك.

وتوالت الأيام، وبدأت الدراسة الجدية في يوم دعت بعض فتيات الجامعة جاستين وصديقه إلى حفلة، لم يرغب جاستين أن يذهب، إلا أنه سرعان ما أقنعه نيكولاس بالذهاب فهو يحب الحفلات كثيراً، فقرر الذهاب لأجل صديقه فقط ووصلا إلى المكان، وكانت حفلة صاخبة جداً، وبدأت الفتيات بالتودد لجاستين، لكنه رفض وشعر بالملل وقرر المغادرة، فطلب من صديقه المغادرة، إلا أن نيكولاس ألح على جاستين بالبقاء، لكنه رفض، فقال له: ابق هنا وعش الليلة، ولكن أنا لا أستطيع البقاء.

غادر جاستين المكان ورجع إلى المنزل، ولكن نيكولاس استمتع بليلته وشرب حتى الثمالة، وخرج من الحفلة في ساعة متأخرة من الليل...

الشوارع مظلمة والساعة متأخرة، وقف نيكولاس في منتصف الطريق دون وعي منه أن السيارة مسرعة والسائق تفاجأ بوجود شخص في منتصف الطريق. حادث مؤسف، نقل على أثره نيكولاس إلى المستشفى في وضع حرج للغاية والسائق الذي أصيب أيضاً.

في الصباح وصل الخبر إلى جاستين الذي أصيب بصدمة عدة دقائق لشدة تأثره بالخبر... وبعد أن أفاق من الصدمة ذهب مسرعاً إلى المستشفى، حيث كان يرقد صديقه وأطلعته الطبيب المشرف على حالته، وأخبره أن حالته حرجة للغاية، وأنه يحتاج إلى عملية فورية لكن هذه العملية تكلف الكثير، وأن نسبة النجاح فيها ضعيفة جداً، ولا يستطيع أن يؤكد شيئاً في الوقت الحالي. لم يستطع جاستين أن يسيطر على نفسه، وبدأ في الصراخ بأعلى صوته وأجهش بالبكاء.

قام بعض الممرضين بتهدئته، وسرعان ما ذهب إلى والده؛ ليخبره بالأمر، وأنه يريد مبلغاً من المال، فأعطاه والده المبلغ، وذهب مسرعاً إلى المستشفى ووقع ورقة التأكيد على العملية، وبدأ الأطباء بالتجهيزات اللازمة ونقلوه إلى غرفة العمليات، والدمع لا يكاد يجف من عين جاستين. وأخذ يتذكر أيامه التي كان يقضيها مع صديق طفولته.

مرت ساعات العملية وكأنها أيام طوال من شدة قلقه على توأم روحه، خرج الأطباء وأخبروا والد نيكولاس أنهم لا يمكنهم تأكيد شيء الآن.

انفراد

يعلم جاستين أن نيكولاس مدمن على الكحول، ولكنه لم يتوقع أن المعاناة ستلوذ إلى هذا القدر، كان قد أخبره أنه يتناول جرعات من المخدرات عن طريق الحقن في الوريد. مرَّ أسبوع على هذا الحال ولا جديد... نيكولاس في غيبوبة كاملة، سمح الأطباء لجاستين بالدخول إلى غرفته لرؤيته فترة قليلة، وألبسوه الملابس الخاصة لدخول الغرفة... - لا أعلم إن كنت ستسمعي أم لا. على وجهك سكينه من تعدى مرحلة القلق، واستسلم لقدره... مخلفاً ترف القلق لي... لا يعلم الأطباء ولا الشيطان نفسه إن كنت ستفيق يوماً من غيبوبتك لتستأنف حياة تشبث بها كيائك. حياة لفرط ولعك بها لم تقبل أن لا أشاركك بها، كثيراً ما تسمعي أتكلم، أن أفرغ ذاتي لكنك تحب الأبواب المغلقة بإحكام تغلق وراءها حياة تزعج حياتي.

آه كم يستهويني الألم، أمضينا سنوات سوياً كروح واحدة، لا جدال ولا مشاجرة. يا ليتك تعيد العلاقات الأبجدية، وتجعل من حبي لك لقمة عيشك.

تمنيت لو تدخل عليّ مرة تلو المرة دون ملل منك ككادح عرقه يفسح طريقه، أحكي لك عن أموري وتفوقي في الدراسة، وتمنيت لو تسكب ضيقك على رحابة صدري أو تصب عليّ شكواك، لكن بيننا أطباء وخدماء وحرساً وسائقاً وطباخاً، وبيننا مسافات أوسع من قصري، بيننا مسافات أبعد من رحلاتك...

ثم صمت جاستين لبرهة وخطا ذهاباً وإياباً قبل أن يلقي بجسده على الأريكة المقابلة لنيكولاس، وواصل إليه الكلام:

- أكان لا بد أن تدخل في غيبوبة حتى أنفرد بك من جديد؟
- أكان لا بد أن تحرق قلبي؟
- أين أنا من بعدك؟

وقف بجانبه وهو يبكي وأمسك بيده، وقال له هيا قم لا تتركني في هذا العالم وحدي، فأنا ضائع بدونك. أفاق نيكولاس بشكل غير كامل وذهب جاستين مسرعاً لاستدعاء الطبيب، الآن أصبح نيكولاس أكثر استقراراً عاد جاستين إلى الغرفة.

غصة في قلبه إذ أن بين الكلمات والحقيقة آلاف الحروف، وصمت يطبق على أضلعنا بشدة لحظات وخرج من انصهارات صمته سؤال: لم لم تخبرني؟

هكذا بدأ جاستين حديثه مع نيكولاس، تلمزك روح فوضوية باطنية أكثر، تخرجك من العمل بطريقة تقليدية، اذهب بعيداً، حاول أن تغور في المناطق المعتمة، سيكسبك هذا شهوة غامضة وأسراً سوداء.

وداع

هكذا بدأ حديث نيكولاس وأكمل: ها أنا من صنع كل النساء اللواتي عبرن حياتي... أموت. طلب منه جاستين أن يرتاح لكن نيكولاس رفض ذلك، وبعد برهة تكلم نيكولاس، وأخبره أنه لا يملك من الوقت الكثير، وكان يستمع إلى جاستين والدموع تنهمر من عينيه، ويقول له: يجب أن أخبرك ببعض الأمور ووصيتي قبل أن أودعك، قال له: لا تقل هذا الكلام... رد عليه لا إنها الحقيقة، وهذا هو الواقع الذي يجب أن تتقبله وتتقبله عائلتي... ولتعلم أنني أحبك جداً فأنت بالنسبة لي صديق الماضي والحاضر؛ لذلك أريد أن أموت بين يديك، ولكن هناك الكثير لأقوله لك؛ لذا يجب أن نختصر الوقت... بقي جاستين صامتاً لا يملك ما يقوله لصديقه الذي تعلق به وأحبه حباً شديداً.

فبدأ نيكولاس حديثه:

أخي وصديقي وكل ما أملك كان الاستمتاع هو وليد جسدي واعتقدت أن الحياة فقط إثارة ونساء. كنت قنوعاً بقدرتي ومصيري، لدي الكثير من الأحلام التي كنت أرغب وأحب أن أحققها وأنا معك، كنت لا أشعر في بداية الأمر بالألم والتعب، وأنا أريد أن تحقق لي الأمنية الأخيرة التي كنت أتمنى أن أحققها دائماً. كانت والدته لبنانية الأصل وأبوه تركيا، وكانت والدته دائمة السفر إلى هناك. وفي لبنان تعيش فتاة مع جدتها حين ذهابي مع والدتي كنت

أقوم بزيارتها، أساعدهما بما أستطيع في صدفة كان لقاؤنا. أرجوك حاول إيجادها تدعى ميريانا طوني، وسأكون سعيداً لو تحققت أمنيتي حتى إن لم أكن على قيد الحياة، وأريد منك تحقيقها، وأن تبقى كما أنت كما أعرفك أريدك أن تعزم أمورك وتكون قوياً تحقق أحلامك وغايتك، وتصبح الطبيب الأول على مستوى العالم وتساعد الناس بكل ما تملك وهذا كل ما تمنيته وأتمناه.

هيا حان وقتك لتسكب في حياتك رائحتك، وعرقك، وفرحك وبكائك، وغضبك من العالم، وتصالحك معه، ورفضك وتسامحك... ولتكن روحك المتناثرة على ورق أبيض... وليكن كفك.

- فكلنا أموات لم يستلموا مهامهم بعد.

- أريد أن أقول لك ما يجول بخاطري.

- بالرغم من أن صداقتنا لم تطل كما تمنيت ولكنك كنت نعم الصديق، كم كنت أتمنى أن أراك بجواري طول حياتي... ولكن لا راد لقضاء الله ولا دافع لأمره، كم سأفتقدك يا صديقي... كم من ليالي سهرنا شاركتني فرحي وحزني، كنت أبث إليك همومي، وأشواقِي، وحبِي ولو عجز الحزن... كم كنت صبوراً عليّ ولا تضجر من صحبتي، ولا تمل من محادثتي ولا من رؤيتي، لا تضق ذرعاً بخواطر نفسي ولا أفكار عقلي. كم كنت محظوظاً بوجودك إلى جواري... فالإنسان لا يعرف قدر أي شيء إلا بعد فراقه وفقده... كم كنت مقصراً في

حقك من ضجر أحياناً، ومن شكوى منك لم أكن أعلم أنك تفعل ما بوسعك لإسعادي.

كنت أعتقد أننا خلقنا لنكون أصدقاء طول العمر لم أكن أتخيل أن أفتح عيني في صباح يوم باكر ولا أجدك، ولا تمتد يدي لك لتأخذ نظراتي لتكون أنت أول صورة أراها كل يوم أمامي لم أكن لأتخيل أن أشكو همي، وحزني، وغمي، ومشاعري، وفرحي ولا تشاركني إياها، لم أضع في حساباتي تخطيطاً للحظة وداع أو دمعة فراق... ولكن هذه هي الدنيا وهكذا تكون... الحياة مجرد نزول وارتحال... فراق ولقاء... صحيح أنك سترحل من عالمي ولكنك ستظل دائماً في قلبي، فعندما تتراءى لنا النهاية أقرب من الأفق، يشرع الحاضر في الإفلات من بين أصابعنا والمستقبل يغيب عن الأحلام. والحياة حلم... واليقظة هي التي تغلقتنا... كما تقول فيرجينا دولف.

وبعد أن انتهى جاستين كلامه بدأ نيكولاس بالترنح والتنفس بشكل سريع... وكان دقات قلبه ستتوقف. ذهب جاستين مسرعاً لاستدعاء الطبيب، وأخرجوا جاستين من الغرفة، وبدأوا يعطونه التنفس الاصطناعي والصعقات الكهربائية، فجأة خرج الطبيب من الغرفة ولم ينطق بكلمة، وتقدم جاستين إليه، وبدأ يستنفس بما حصل، قال الطبيب: الأمل انتهى ولم يستوعب جاستين الأمر وركض مسرعاً إلى الغرفة التي يوجد بها نيكولاس وهو يصرخ أفق يا صديقي أفق لا تتركني

لوحدي أنا أخاف أن أعيش بدونك، أنا أخاف من هذا العالم، أفق أرجوك لا تتركني وحيداً لا أحد لي غيرك. ودموعه تسيل على وجنتيه وهو يحتضن صديقه بين ذراعيه ويضغط بقوة، قدم بعض الأطباء واستطاعوا إخراجه من الغرفة بعد معاناة؛ لأنه كان يرفض أن يترك صديقه بعدها. قدم والده، ووالدته لم تستوعب الأمر ودخلت في غيبوبة من شدة الصدمة، واستطاع والده أن يسيطر على أعصابه...

نقلوا نيكولاس إلى مثواه الأخير، وكان جاستين قد حقنه الأطباء بمهدئ؛ ليصبح مسيطراً على نفسه وقت مراسم دفن نيكولاس... فدعوا له بالرحمة والقبول، ومن ثم قدموه إلى عائلته للوداع الأخير، وطلبوا من جاستين القدوم، فألقى عليه جاستين النظرة الأخيرة وتكاد عيناه تذوبان من كثرة الدموع، وقال له: وداعاً صديقي...

عاد جاستين إلى بيته منهار الأعصاب والروح تتخبط به والذكريات لا تكاد تغادر مخيلته، وهو يتذكر صديق طفولته الوحيد وكأنه لا فرق بين صباح أو مساء بالنسبة له، لم يخرج من غرفته قط، مر شهر وهو على هذه الحال...

بين قبرين

بعد ذلك قرر جاستين أن يزور قبر صديقه. ها أنا أستيقظ إذن؛ لأكتشف أن المصيبة تكمن في صفاء ذهن يحاول أن يفهم لأجل الفهم فقط. إذن لم يعد بمقدوره تغيير شيء. وقد أدرك عمق ما قاله أحدهم: إننا لا نتخلى عن عيوبنا بل عيوبنا هي التي تتخلى عنا. فكرت وأنا في طريقي إلى المقبرة أن أعرج على بائع الورود، أشتري باقة حمراء ومجسماً لعله ينجدني ويصاحبني، صنعت له مجسماً من قطع المرايا الصغيرة على شكل طائر ذي جناحين عريضين وكتبت: إلى صديقي نيكولاس، كان طائراً حلق قبل الأوان وذهبت إلى المقبرة لزيارته، فجلست بقرب القبر الذي دفن فيه. وصمت لفترة من الوقت وشريط الذكريات يمر كطير متألق في سماءٍ اختفت من عالم البشر، تشعر وأنت في المقبرة بنوع من السكينة والراحة، تدرك أن للموت جمالية خاصة تسقط عنك رهبة وخوف. الموت يصر على جمعك في قبر من تراب يشد على عظامك، لا آخر أمام الموت. كما يقول سارتر: "الجحيم هو الآخر". الموت اكتفاء. ماذا لو كان بالإمكان العودة إلى الحياة بعد تجربة الموت؟ بجانبه قبر أمه... وأنت يا مهجة القلب ينتصر القدر حالماً نؤمن به. وهل يكفي عدم الإيمان بالقدر لهزيمته والخلاص من قبضته؟ آه يا أمي ها أنا أفتقد روحاً جديدة. لو كان بالإمكان قفزت إليك بقبلة واحدة، ويدل على تلعثي وشتاتي بين قبرين. وضعت ورقة على قبرها إلى أمي، كانت الجنة أينما حلت.

حقاً إن الأشياء التي تصنع الإنسان هي نفسها التي تقبره، ولي لحظات تنتظر أن أمتد فيها عميقاً. جمعت شتات نفسي وصدى الصوت بداخلي يردد: بمقدورك اختيار قدرك، غداً سيكون بالإمكان. لملت ملامح القبرين ووضعتهما في قلبي، ومضيت نحو البحر أبلل به اشتياقي.

حياة

رجع جاستين إلى بيته واستحم، ومن ثم أعد له الخدم طعام العشاء، وسأل عن والده، وأخبروه أنه سافر مع زوجته إلى أمريكا لعمل مهم... بقي جاستين صامتاً وصعد إلى غرفته كعادته، ومن ثم جهز بعض المعلومات التي تخص دراسته التي تراكمت عليه، حيث كان قد أهملها في آخر فترة وبدأ بمراجعة دروسه ونام من شدة التعب فوق الكتب...

في اليوم التالي كالعادة استيقظ مبكراً؛ ليمارس الرياضة وركض مع شاطئ البحر؛ لأن منزله كان قريباً منه، ثم رجع واستحم وجهز نفسه للذهاب إلى الجامعة.

ذهب إلى محاضراته وفي وقت الاستراحة تفاجأ بفتاة تقترب منه وهو جالس على الكرسي في الحرم الجامعي، وضعت يديها على كتفيه من الخلف، ماذا تفعلين؟

- لا شيء فقط أحببت أن أجلس بجانبك.
- أتركيني وأرحلي.
- ما بالك ما هذا الغرور الذي يخلق عندك لعنات؟ يكفيك!
- قبلة واحدة منك وسأرحل.
- وهل جننتي أخبرتك أن تتركيني وشأني.
- عليك اللعنة!

مرت الأيام والشهور وجاستين منهمك بالدراسة ولا يلقي بالاً إلا لدراسته، والفتاة تلاحقه أينما يكون، وهو لا يلقي بالاً لها، فهو يكره النساء، فعندما يرى الفتيات يتذكر أمه التي كانت تعمل في (CIN الأمريكي) مركز الجنايات للقضايا والجرائم الاجتماعية. كانت أمه دائمة السفر والخروج من المنزل بسبب المهمات الصعبة التي تقع على عاتقها، وفي يوم كانت مسافرة إلى خارج تركيا في مهمة جنائية، وتفاجأ جاستين بقدوم والده مع امرأة لم تكن أمه إلى المنزل. وفي ذلك اليوم لمح والده واقفاً بجانب الباب، وخرج والده مسرعاً، وقام بضربه ضرباً مبرحاً، ووضعته في الغرفة، وقال له: إياك أن تخبر شيئاً لوالدتك وإلا سأضربك، وأقل باب الغرفة وأطفأ النور عليك، فبقي جاستين يبكي من شدة الخوف، ويقول: أبي لا تتركني هنا أنا أخاف في الظلام.

وفي اليوم نفسه رجعت أمه من السفر، وكان والده أخرجه من الغرفة عندما علم أن زوجته مشرفة على العودة إلى المنزل، ووصلت المنزل واستقبلها زوجها، ومن ثم جلسا لبرهة، فافتقدت جاستين وسألت زوجها أين جاستين؟ فأخبرها أنه نائم فاستأذنته بالصعود إلى الغرفة لتنام قليلاً وترتاح، ولكنها أرادت الاطمئنان على ابنها فدخلت غرفته، وتفاجأت أن ابنها يبكي وعليه آثار ضرب، وأسرعت بحضنه وبادرت بالسؤال: ما بك يا صغيري من فعل بك هذا؟ هل هم الأطفال في المدرسة؟ ولكن جاستين كان يرفض التكلم، وظهرت عليه علامات الخوف، وبدأت الأم تهدئ من روع ابنها وهو يحضنها،

وانتظرت حتى دخولهما المكان وذهبت خلفهما، وصعدا إلى غرفة، وكانت تراقبهما وبعد برهة فتحت عليهما الباب وصدمت بما رأته بيرين من غزل على الفراش وتبادل القبل كان الأصعب عليها أنه نفس الفندق الذي تعرفت على زوجها فيه، والذي تم فيه لقاءهما الأول ما رأته آثار جنونها، وأن الذي يحصل أكثر من علاقة عابرة، كان زوجها متفاجئاً بكيفية فتحها للباب، إذ أنها دفعت بعض الليرات إلى عامل الفندق ليعطيها نسخة عن مفتاح الغرفة... ولم تنطق بكلمة واحدة، ومن ثم خرجت مسرعةً من الفندق وصعدت إلى سيارتها، وبدأت قيادتها قيادة جنونية على الطريق، حاول سائق سيارة في الطريق الذي تسير فيه أن يقول لها تمهلي، لكنها غارقة في وحل أفكارها، ولم تبقى إلا بضعة أمتار تفصلها عن عائلة عطلت سيارتهم ويقفون لاستعانة بسيارة أخرى تنقذهم، وقفوا في المنتصف لمحاولة طلب المساعدة ولكنها كانت مسرعة، وحين ظهور العائلة أمامها غيرت المسار لليسار ووقعت سيارتها من جرف عال.

وبعد وفاة والدة جاستين تزوج والده من المرأة التي أحبها، وعاشت مع جاستين في المنزل نفسه، وعندما كان يخرج والده كانت تقوم بضربه وإهانته، وتغلق عليه باب غرفته، وظلت تعامله بهذه الطريقة إلى أن كبر. ولذا يكره النساء؛ لأنه عاش الأمرين، والخوف، والرعب بعد وفاة والدته...

- لا تخف أنا هنا الآن، معك وبجانبك يا صغيري.
- لكنني أشعر بالخوف من والدي.
- لا تخف هيا أخبرني.
- أمي إني أحبك جداً، فاليوم رأيت والدي في منزلنا مع امرأة، كان معها بغرفتك.
- ألم ترَ ما الذي كانوا يفعلونه.
- لا لم أرَ؛ لأن والدي عندما رأني واقفاً جانب الغرفة ضربني ووضعني في غرفتي، وطلب مني أن لا أخبرك وأطفأ نور الغرفة عليّ، وأبقاني وحدي وبقيت أبكي من الخوف، أمي لا تتركيني لوحدي في المنزل مرة أخرى، أنا أخاف أن أبقى وحيداً، فقالت له: يا صغيري أعدك أنني لن أتركك مرة أخرى لوحديك هيا أريدك أن تنام وأنا بجوارك.
- توجهت بيرين إلى زوجها لتستفسر عن الأمر والدموع بعينيها، وتفاجأت بأنه قد خرج من المنزل، رجعت إلى غرفتها لترتاح. وفي اليوم التالي قررت أن تراقب زوجها إلى أين يذهب. وخرج زوجها من المنزل، وجهزت جاستين؛ ليذهب إلى مدرسته ثم سارت خلف زوجها الذي ذهب إلى الشركة، وانتظرتة في الكافتيريا المقابلة للشركة، وبعد ساعتين قدمت فتاة بسيارتها إلى الشركة، استغربت منها وبدأ الشك يأكلها، وتفاجأت بأن زوجها يخرج من الشركة ويصعد مع المرأة الأخرى إلى سيارتها، صعدت إلى سيارتها وسارت وراءهم، وعند فندق توقفا،

صرخة دوت آآآآه يا أمي! تتواصل حالة ملموسة بكل الفصول،
مطر يبكي... وثلج يرتعش... وريح تنن من البرد... ونار تحترق...
يا لهذا الزخم!

مرت سنتان وهو منهنك كلياً في دراسته الجامعية التي كانت
لخمسة شهور من دراسته لعلم النفس، وبدأت الاختبارات النهائية
وحصل على المرتبة الأولى بدرجة عالية... وبعد ذلك كانت هناك
إجازة لعشرة أيام، قضاها ما بين ممارسة الرياضة والركض على البحر،
وقراءته للكثير من الكتب الثقافية التي تتكلم عن تقوية الشخصية،
والذات والتفاعل الاجتماعي، وبدأت المرحلة الثانية في الجامعة، واختار
تخصصه بكل ثقة واقتناع، فاختار تخصص علم النفس، فكعادته
انهمك بدراسته، واستطاع أن يتخلص من بعض الصعوبات التي كانت
تواجهه في السابق من ناحية شخصيته، وبعض الخوف الذي كانت
تراوده... فدخل الجامعة وتفاعلاً بوجود الفتاة التي تحبه في نفس القسم
الذي يدرس فيه، وتدرس نفس تخصصه، فتقدم جاستين نحو المقعد؛
ليجلس وتقدمت وجلست بجانبه، وهمست أخيراً أنا بجانبك، لم يعطها
أي اهتمام، فسألته المهم كيف حالك؟ فرد:

- أنا بخير طالما أنك بعيدة عني... فتبسمت ماريا أوخينيا...
- لا تقلق أريد أن نبقي أصدقاء فقط إن كنت لا تمانع... أريد أن أكون
صديقك... فأنا أحتاجك لبعض الأمور والدراسة لكي تساعدني

بها... رغم أنها كانت تُكُن له الحب، لكنها تريد أن تكون على الأقل
بجانبه.
- أنا موافق فقط لبعض الأمور المهمة.
- أشكرك...

انتهت المحاضرة... وخرج جاستين من القاعة وذهب إلى الحرم
الجامعي، وخرجت وراءه ماريا، ولفت جاستين عينيه إليها، وقال لها:
- للمرة الأخيرة ابقني بعيدة عني كما قلت لك سابقاً... لكي لا أخرجك...
- ولكنك لا تفهم أنا أعشقتك، لماذا تعاملني هكذا؟ أهكذا تعامل حبي
لك... أنت لا تشعر... فصمت جاستين لبرهة...

- نعم إن قلبي مثل صخرة لن تكسره أية امرأة في عالمي... لن
أعشق... ولن أحب... إن شئت ابقني صديقتي. فأنا سيد
التناقضات، أحسن جمعها وطرحها عند الضرورة كبهلوان استبدل
صلابة الإسمنت بهشاشة الحبال، أنا هارب من قبضة نفسي إلى
الريح، وأنا الشيطان والمسيح!

- أعلم هذا وأحبك، أحبك كطائر وأحب انفلاتك وإشراقائك، وإحباطاتك،
وأحبك رغم أنني لا أستطيع حتى تحسس جسدي اللعين! ابتسامة.
- ويا لحماقتك إن فكرت أنك تستطيعين التأثير علي!

لملمت ملامحه الخبيثة ووضعها في حقيبة يدها قبل أن ترحل
فكرت وقالت له: أصدقيتك؟

- صديقتي فقط لمعاملات الدراسة، أينما يكن هناك مشروع حول
الدراسة والتخصص ستكونين معي... لم تجد ماريا أمامها سوى هذا
الخيار فقط لتكون بجانب من تحب... وقالت له:
- أتعدني.
- نعم.

بعد برهة قدم زميلهم غابرييل ورحب به جاستين وسلم عليه وسلم
على ماريا... تفاجأ جاستين بغابرييل يقترب منه حتى وصل لأذنه
وهمس له:

- أحب الفتاة (يقصد ماريا أوخينيا).
- لا، لا تربطني بها أية علاقة سوى الزمالة، تبسم غابرييل وأخبره أنه
يحبها؛ ولا يعرف كيف يصل إليها.
- سأساعدك... لكن أذهب الآن... رد عليه غابرييل كما تريد وقدم
تحية إعجاب لماريا وقال لها: أراك يا حلوة...

انتهت محاضرات جاستين، وبقيت لديه بضعة أعمال وأنشطة
طبية عليه أن يقوم بها بعد نجاحه في المرحلة الثانية من الجامعة
بدرجة الامتياز. تقدم جاستين لبعض الأنشطة والدورات في التنمية
البشرية في تخصصه...

بعد اكتساب جاستين لهذه المهارات، والخبرات، والشهادات العليا،
تقدم للاختبار الأخير؛ ليكون به قد أنهى مرحلة التعليم الجامعي بأكملها
بكل تقدم وتفوق. بقي أن يستلم شهادته الفخرية في حفل كبير جداً

خصص لخريجي علم النفس. جاء هذا اليوم؛ ليكشف عن أناقته
المغمورة في ركام أحزانه كما يغمر الكتاب الجميل بين غبار الزمان.
فجأة دق باب غرفة جاستين، ففتح الباب، كانت الخادمة، قال لها ماذا
تريدين؟ قالت له، لقد أتى والدك. صمت... وبعد برهة رد عليها وماذا
يعني... اذهبي...

وبعد أن انتهى من تجهيز نفسه ووضع البارفان، بقي للحظات
ينظر إلى نفسه في المرآة، وأعطى لنفسه قبلة في الهواء، ومن ثم خرج
من غرفته واصطدم بوالده، وقف جاستين ونظر إليه بنظرات الحقد التي
تخللتها دموع؛ ولكنه لم يدع هذه الدموع أن تسقط، وقرر أن يبقى
قوياً... قال له والده:

- سمعت أنك تخرجت في الجامعة بامتياز، واليوم حفل تقديم شهادتك.
أتحب لو أرافقك.

- ليس من الضروري مرافقتي إلى اللقاء، بهذا يكون جاستين قد أتم
مهمته الأولى في الحصول على الشهادة الفخرية مع مرتبة
الشرف... قال في نفسه: الحياة لا تساوي شيئاً لكن لا شيء يساوي
الحياة.

الرحلة الأولى

ويل للزمان مني إن تغاضى عن أحلامي، يا ويل من يعتدي على حقوقي، ويله ذلك الذي يوقف بريق فرحة في عيني ومن يسرق زفاف الآمال!

وكيف للزمان أن ينصفنا والله هو الملاذ الآمن؟

كانت هذه الكلمات تتردد في نفس جاستين كلما مر بمرحلة جديدة في حياته في خطواته الأولى، ينطلق كجناحات الطير لا يكثرث لمطبات السماء ويكون بين الغيوم محلقاً، يبتلع الكلمات ويضعها على رف آماله بعد ترديدها، ثم يذهب إلى شاطئ البحر يتركه يهادي قميصه المفتوح ويكون الدخيل الذي يسكنه في عالمه دون أن يزرعه أحد! آثر أن يفكر بعمق، رغم الفقد الذي يجعله فتاتاً لكن من رحلوا لن يوقفوا طريقاً وعليه أن يبتسم ابتسامة شكر لله.

فكر كثيراً ما العمل الذي سيدخله في جنون الحياة، على جانبه شابان في مقتبل العمر كلٌ يقول للآخر حلمه الذي يطمح به، طرق على مسامعه كلام أحدهما أن الحياة لن تتصفه ليجوب العالم من شرقه إلى غربه ومن نهره إلى بحره، حشت هذه الكلمات تفكيره ساعتين مع البحر أنجبت معه جولة حول مناطق في العالم.

من هذا المنطلق قرر أن يقوم بجولة حول مناطق معينة من دول العالم التي سيكون لها تأثير على شخصيته، والتي يجب أن تترك أثراً إيجابياً في نفسه... ذهب جاستين إلى وزارة الثقافة التركية التي تهتم

بالتقافات الإنسانية، وبدأ هناك الاستفسار عن الأماكن التي يجب أن يبدأ طريقه بها، وقدم له العديد من الشخصيات بعض المناطق والنصائح... وخيروه بين الصومال، والسودان، وباكستان. وقال لهم:

- ما سبب اختياركم لهذه الدول؟

- إنها إنسانية بحتة وفقيرة تحتاج إلى أن تعطيم انتماءك الإنساني أكثر من أن تقوم بالتبرعات لهم، كما تحتاج للتأهيل الطبي...

اقتنع جاستين بما قدمه له من أسباب... تعتلج في صدورنا الأحاديث، فَنُكِّرُ في زهرات القلوب أملاً يستحق أن يكتبه التاريخ، وننثر من شعاع الشمس نورا، ومقلتين تبصران بناء الصخور مجداً، لنصافح المطارات والطائرات عنوة بين أروقة الفنادق كانت وجهتنا الأولى هي الصومال...

تناول جاستين طعام الإفطار، وقال للخادمة: أخبري والدي أنني مسافر، وسأتصل بكم بين لحظة وأخرى لكي تطمئنوا علي... فبدأت الخادمة تكثر من التساؤلات. فقال لها: هذا ما لدي لأقوله إلى اللقاء... وقبل صعوده إلى السيارة تفاجأ بوجود ماريا أوخينا، وقالت له:

- إلى أين ستذهب؟

- أنني مسافر فبدأت بالبكاء.

- ألم تعدني أنني سأرافقك لكل مكان ستذهب إليه؟

- نعم ولكن لا أريد أن تشعري بالمشقة والتعب، سأذهب في رحلة تطوعية.

ولم تشتمل على أي نوع من الاستمتاع أو الترويح، تأثر جاستين جداً بالمشاهد الإنسانية مما أعطى التحفيز الإيجابي للتقدم أكثر...
رجع جاستين وفريقه إلى تركيا ليأخذوا قسطاً من الراحة... ولكن جاستين استغل فرصة وجوده في تركيا، وبدأ يزور الكثير من المكتبات الثقافية. في المقابل لا يملك المعلومات الكافية عن ما يحيط بتركيا من دول وعن جنوب أفريقيا، حيث وجد من خلال متابعاته الثقافية أن هناك فراغاً ثقافياً كبيراً ترك توتراً في نفسه... فبقى هناك أكثر من سؤال يجول في خاطره... كانت من عادة جاستين عندما يشعر بتوتر أو أن هناك نقصاً لديه في معلوماته يذهب إلى شاطئ البحر...
جلس على شاطئ البحر شاردأ يفكر بالشيء الذي ينقصه من الثقافة لفت بصره رجل... جاءه صوت من جانبه لم يشعر به إلا حين سمعه ما بك يا بني؟
أعيش تشتتاً أشعر بأن هناك شيئاً ما ينقصني والحياة تعاركني أفنقد من هم مهجة الروح، روجي تقتل دون وعي مني أتوه في ثنايا الشواطئ أحاول، وفشلي لا ينتهي. أنت في ريعان العمر دع أحلامك تخطو خطاها وأنت من خلفها دعك من التناقضات، ولا تدع ثقافتك تكون ضمن بيئتك المحيطة بك... فهناك أكثر من عالم وهناك أكثر من كوكب... فانتهبه يا بني لخطواتك واجعل إنسانيتك رمزاً لشبابك ورجولتك ولا تجعلها تسيطر عليك... تقبل وقابل كل شيء جميل بشيء

- ما المانع؟

حسنا سنأخذ معنا غابرييل لنكون فريقاً واحداً وخلال يومين سيكون كل شيء جاهزاً.
بعد مرور هذا الوقت انطلقوا إلى المطار، وصعدوا إلى الطائرة وحطوا في فندق أول محطة حيث كانت الصومال...
بدأوا عملهم كفريق واحد، في قرية صغيرة نائية تقتقر لأبسط مقومات الحياة لمدة أسبوع. إنه لمن الرائع أن تعيش في قرية مع أناس بسطاء قلوبهم طيبة لا تحمل ضغينة أو حقدًا، لا يريدون من الحياة هذه سوى العيش بسلام وتلبية احتياجاتهم، عالم متغطرس وحياة لا ترحم أجساداً ضعيفة.
يملك جاستين في يديه قلماً يحب المسير معه ودفترًا لا يفارقه ليدون كل ما يجول بخاطره، هذه الحروف كتبها. عالم تجربتي الأولى هو المميز بعيد عن العالم الذي أعتدت العيش فيه.
ومن الصومال إلى الباكستان ومن ثم السودان... الباكستانيون المسلمون والسودانيون عاملوهم بكامل الاحترام لجاستين ورفقائه، وقدم جاستين الخدمات نفسها في كل من الباكستان والسودان التي قدمها في الصومال.
وهكذا تكون رحلة جاستين بأكملها قد استغرقت شهراً غير التجهيزات وأوقات الفراغ. وكتب جاستين في يومياته انتهت المهمة كاملة بنجاح. وبما اشتملت من تفاصيل كانت رحلتهم شاقة ومتعبة،

أجمل... بقي جاستين يستمع لكلام العجوز بكل اندماج وعفوية. صدفة لقاء ووداع للقاء جديد.

قدم له العجوز هدية تذكارية... ساعة يد... قال له جاستين:

- أشكرك... لكلماتك ليست للنسيان ولشخصك مني أروع الاحترام...
مرت أيام وجاستين يزور المكتبات والأماكن الثقافية لعله يجد معنى لكلام العجوز الذي قابله على شاطئ البحر...

غزة

وخلال خروجه من مكتبة أتاتورك التركية، وإذ بشاب يعطيه صحيفة ويقول له: اقرأ أخبار اليوم أعطاه جاستين ثمن الصحيفة، وبدأ يتصفح ويقرأ بشكل عشوائي، فأثار انتباهه عنواناً (غزة ما بين الحرب والحصار) في نفس الوقت الذي أمسك بالصحيفة، ثم جاءه اتصال يخبره أن لديه مقابلة تلفزيونية لمناقشة الرحلة التطوعية التي قام بها، طوى الصحيفة، وصعد إلى سيارته وذهب ليجهز نفسه للمقابلة.

وفي اليوم التالي ذهب إلى مكان المقابلة التلفزيونية، رحّب مقدم البرنامج به، وكان جاستين متوتراً بعض الشيء؛ لأنها المرة الأولى التي يخرج فيها لمقابلة تلفزيونية مباشرة... بدأ مقدم البرنامج يحاوره ويناقشه حول الرحلة التطوعية التي قام بها هو والفريق الطبي الذي رافقه، وكان جاستين يترأس هذا الفريق وطرح مقدم البرنامج الكثير من الأسئلة كان من أبرزها تناول مقدم البرنامج سؤاله ذلك... ألم تضع في خطتك الذهاب إلى فلسطين وعلى وجه الخصوص غزة؟ صمت جاستين برهة، وقد تذكر العنوان الذي لفت انتباهه في الصحيفة، ورد قائلاً: هناك فرص لا تتكرر... لا وقت بعدها قد يكون مناسباً. قرأ جاستين الجريدة وكانت الأخبار كلها تتحدث عن غزة، تكرر عليه في أغلب الصفحات بأكثر من موقع إلكتروني وقرأ تفاصيل هذا العنوان الذي كان في سنة 2008 - 2009.

تأثر كثيراً بالمعاملة الوحشية لأطفال غزة، والمدنيين، والنقص الطبي الحاد الذي تعانيه مستشفيات غزة في ذلك الوقت... انتهى جاستين من قراءة الصحيفة، ولم يكتفِ بها بل بدأ يتصفح على شبكة الإنترنت ويقرأ ما حملته الصحف والأخبار، وكل ما يخص حرب غزة والظروف غير الإنسانية التي كانت تعيشها والوحشية التي تعرض لها أطفال غزة من جراء الأسلحة الثقيلة التي استخدمها الاحتلال، وعندما حصل على كل المعلومات حول غزة وما تعانيه، ورد خبر عاجل على موقع إخباري كان يشاهده من خلال الأخبار (سفينة أسطول الحرية التركية تتجهز للانطلاق إلى غزة)، قرأ جاستين هذا الخبر بكل جدية واندفاعية، وبدأت اتصالاته مع بعض معارفه والعاملين في المؤسسات الإنسانية، وبدأ يستفسر عن هذه السفينة، وأخبروه عن تفاصيل هذه الرحلة التي تضم العديد من الشخصيات التي تتأسس هذه القافلة، وبالمتضامين الأجانب مع غزة، وأن هذه الرحلة تضم أكثر من جنسية، وأنها تحمل مساعدات طبية إلى مستشفيات غزة وبعض المستلزمات الإنسانية.

بعد انتهاء جاستين من الحديث مع المؤسسة المسؤولة عن هذه السفينة، فكر كثيراً ووصل إلى قراره الأخير أنه سيذهب إلى غزة مع أسطول الحرية، وحينما كان يهيم بالخروج من المنزل قابله والده، وتوقف وقال له:

- أود لو تعطيني بعضاً من وقتك.

- بالطبع يا بني أخبرني كيف حالك؟ لقد اشتقت لك يا بني...
- أنا بخير لا داعي لهذه الرسميات سأدخل في صلب الموضوع، قررت أن أسافر مع أسطول الحرية إلى غزة.
- لا لن تذهب رد جاستين لا بل سأذهب، رد والده هذا قراري النهائي أنا خائف عليك قررت وانتهى رد جاستين بنبرة حادة بعض الشيء، وأنا لم أطلب قرارك أنا جئت لأخبرك بقراري. سمع والده كلامه فلم يسيطر على أعصابه؛ فصغعه على وجهه، بقي جاستين لاقئاً وجهه من شدة الصفعة، ولم ينظر إلى والده لكي يسيطر على أعصابه، بعد برهة نظر إلى والده، وقال له: وداعاً... وبعد يومين أصبح جاستين مستعداً للذهاب مع السفينة...

وصل جاستين إلى مرسى السفينة وكان كل شيء جاهزاً، وقدم رجال الأمن نفسيهما له، حيث كان الرئيس قد كلفهما بمرافقته وحمايته. انطلقت السفينة إلى عرض البحر وجلس جاستين مستمتعاً بمنظر البحر حيث كان مغرماً به.. استغرقت السفينة ساعات للوصول إلى الحدود الإسرائيلية الفلسطينية وتفاجأ الجميع بفتح الاحتلال الإسرائيلي نيران أسلحته عليهم، وهاجموا السفينة بكل وحشية، وراح ضحية هذا العمل غير الإنساني عشرة شهداء ممن كانوا على ظهر السفينة، ووصلت السفينة إلى ميناء غزة، وكان في استقبالهم حكومة غزة التي تملك زمام الأمور فيها.

ما تبقى من دماء ووجع حتى حين إعلان التهدئة والاتفاق، سيبدأ ألم
الفقد والبتير ولا سبيل إلا بالاستمرار دون أطراف قد بترتها آلة الحرب
الصهيونية وأطفالهم الذين تيتموا دون نهاية.

بالرغم من أن جاستين متأثر بالحدث المفاجئ الذي حصل وهو
على ظهر السفينة؛ لأنها كانت المرة الأولى التي يعايش مثل هذه
الأحداث، ولكنه حاول جاهداً أن لا يتأثر في عمله... ساعد جاستين
الكثير مع فريقه الطبي... بقي أياماً يقوم بعمله حتى نهاية الحرب على
غزة، واستطاع خلال هذه الفترة تقديم ما يستطيع أن يقدمه من
العلاج... بعد انتهاء عمله وعد نفسه أنه سيكون هنا مرة أخرى خلال
مدة بسيطة...

في ذلك الوقت شعر جاستين بالفرح عندما وصل وبهذا الاستقبال
رغم الظروف المحيطة والحرب الهمجية، رافق الوفد جاستين إلى بعض
مدارس الأونروا التي كان المهجرون من بيوتهم المدمرة متواجدين فيها،
ونظر في عيون الأطفال المليئة بالدموع والخوف... واستكمل جاستين
مع الوفد ورجال الأمن المرافقين له المستشفيات، ومن ضمنها مستشفى
الشفاء، وشاهد الكثير من الإصابات التي يدمي لها القلب...

عجبت من صبرهم من قوتهم، خسران فلذات الأكباد وتحليقهم في
فضاء لا يتسع لغير الاحتلال. ووضعهم في إقامة البيوت المهدامة
ومدارس تفتقر إلى الماء يسمونها قصراً طالماً أنها في الوطن! أي
قصر هذا الذي دفنتم به؟ وكأن الانتظار قدركم، ويا لكم من بشر في
وطن مبدد، شبابه وراء قضبان الظلام من أجل الحرية.

جنّت من بعيد لعلي أجد بعضاً من إنسانيتي هنا، فلم أجد غير
أنهم يعلمونني معنى الحياة والوطن، يعوضونني عن العمر الضائع،
أكون في هذا حكمة لمن لا يستوعب؟ حقاً في محاذاة الموت تكبر
قيمة الحياة.

انتهت الفترة المطلوبة من أعضاء الوفد لأسطول الحرية، وحان
وقت المغادرة بعد أن قدموا ما يلزم من المستلزمات الطبية والأدوية
الضرورية، ويجب عليهم المغادرة. لكن جاستين قرر البقاء لعدة أيام
إضافية في غزة للمساهمة في التخفيف عن سكان القطاع المحاصر
والعلاج النفسي... ورفض العودة مع الوفد، بقي في غزة حاضراً على

سارة

وصل جاستين إلى بلده مرة أخرى اشترى له منزلاً، وقرر أن يستقل لوحده بعيداً عن أبيه وزوجته في غرفة ضيقة، وسرير ومكتب صغير، وكروسي، وإشراق نافذة تطل على الحديقة.

لا تعني لي حبس خطواتي ولا عزلة خانقة ولا سأم من الحياة، هذه هي البساطة التي أبحث عنها. كان يشعر بتعب شديد من الوقت العصيب الذي مر به في غزة، وكان يريد أن يرتاح بعض الوقت لكن ذاكرته وأحداث غزة لم تعطه فرصة للنوم، وكانت ذات تأثير كبير جداً على حالته النفسية، فجلس يدون يومياته وكتب عن تفاصيل ما مر به في غزة. نام جاستين من غير أن يشعر بنفسه على مكتبه.

وفي اليوم التالي أراد أن يعود لحالته الطبيعية فكالعادة ذهب ليمارس الرياضة والركض على شاطئ البحر، وخلال تواجده على الشاطئ قابلته ماريا أوخينيا، وتناولوا وجبة الفطور معاً، فاصطحبها إلى منزله الجديد، وأخذ الحديث يطول بينهم حول الأحداث التي كانت أثناء تواجده في غزة. سألتها ماريا عن الرحلة، فأجابها: أحسست بصغر نفسي أمام سموخهم، سخيلاً أمام معاناتهم المكتومة، أناني جداً. كل منهم يحمل ذاكرة تثقل كاهله ومحظوظ منهم من خانته الذاكرة.

بكت ماريا أوخينيا على الحالة غير الإنسانية التي تمر بها غزة، وفجأة صرخت ماريا أوخينيا، وقالت بصوت مرتفع فيه نوع من الفرح: عندي فكرة ما رأيكم بعد مدة أن نذهب ثلاثتنا إلى غزة؟ وهكذا لن يصبح رأيهم دون البشر... فرح جاستين بهذه الفكرة وقال:

- نعم وسنأخذ أيضاً معنا بعض الشباب المؤهلين طبياً في علم النفس، وقال جاستين في نفسه: ستكون نقطة استقرار بغزة وكم أحب لو أبقى هناك. فكرت كثيراً قبل أن أخطو بلا وعي إلى غزة المحاصرة، وطلبت ذلك، وكم تمنيت أن أقوم بواجبي هنا كعلاج نفسي، أقوم ببعض الدراسات على عدد محدد طالبات المدارس، أمل قبول طلبي.

مع بدء مراسم الاختبارات والدراسات التي كانت في خطته، رافقهم بعض من الأطباء النفسيين إلى بعض من مدارس المرحلة الثانوية التي سيختارون منها بعض الحالات في مدينة غزة المحاصرة ستتفاجأ بحجم حبهم للحياة، ابتسامات الصباح وغمرة الأحلام، أيام ثقيلة من الحرب، وجع يتبعه وجع، جميل أن لا تجد النفوس تسلم نفسها لجزرها، حروف من الأمل، الاستغاثة بالله هو انتشائهم وحرثتهم!

في صباح اليوم التالي استيقظ جاستين كعادته مبكراً، وكان يشعر شعوراً غريباً رغم التعب الذي سيطر على جسده، فمارس بعضاً من النشاطات الرياضية اليومية واستحم وارتدى ملابس جديدة، بنظراً لأسود يعلوه معطف بنفس اللون، تحته قميص بلون البياض كأنه عريس في يوم الزفاف، يفتقر إلى عروس في يده اليمنى أو اليسرى، المهم أن تكون بيده، بدأ يمشي بخطوات بطيئة مثل طفل يتعلم المشي تشعر أنه سيسقط آلاف المرات وعيونه تتحرك في اتجاهات لا يمكن حصرها، ووقف جاستين أمام المرآة بعد انتهائه من ارتداء ملابسه، بدأ ينظر إلى نفسه كأنه المرة الأولى التي يرى فيها نفسه بهذه الوسامة، فوضع قرطاً

التي يتودد فيها لامرأة، والفتيات في كل مكان يتمنين نظرة منه، فردة فعل الفتاة كانت سر انجذاب جاستين لها بشكل كبير وبقي يسترق النظر إليها... قد يقنعك كبرياء عابر، أو رعشة، أو مجرد أمل غامض بفعل شيء بعد أن فشلت في إقناع نفسي في أن أعطيها فرصة للحب، وحتى كتب علم النفس لم تقنعني!

وعندما وصل الدور لهذه الفتاة صرخت وبدأت بالبكاء وشعرت بالخوف الشديد، وقالت للممرض الذي سيعطيها حقنة التطعيم:

- لا تقترب مني أرجوك، ولكن الممرض لم يكثر لصراخها ورفضها، وصمم أن يقوم بفحصها وأمسكها من يدها ليجري الفحص أسوة بالأخريات، وجاستين يراقبها بعمق قرر أن يتدخل واقترب وإذ بالفتاة ترتمي على الأرض مغشياً عليها، أسرع جاستين بمحاولة إنعاشها وجعلها تستعيد وعيها، ولكن الفتاة لم تستجب، فحملها إلى السرير الموجود في نفس الغرفة التي يتواجدون فيها، وطلب من الجميع الخروج، وبقيت ماريا، لتساعده قام جاستين بقياس نبض قلبها فوجده ضعيفاً للغاية لم يكن أمامه إلا أن يعطيها التنفس الطبيعي (قبلة الحياة) اقترب منها مع وضع يديه متشابكتين على صدرها والضغط عليه بشكل متدرج في نفس الوقت أعطاها التنفس، وبدأت الفتاة تستجيب تدريجياً وما أن أفاقَت بدأت عليها علامات الخوف الشديد والتراجع، وبقيت تقول: بترجائك ما بدي الحقنة، أعطأها جاستين رشفة من الماء لتهدأ، وجلس إلى جانبها على السرير الذي كانت تجلس عليه، وبدأ يحدثها بكل هدوء وطمأنينة، لكن الفتاة لم تكن

بأذنه كان لونه أسود بشكل نجمة صغيرة الحجم، وساعة يد سوداء ومقوم أحادي يأخذ شكل نجمة أيضاً ولونه أسود، وكان يمتلك سناً بما يعرف بالناب كانت لديه سن مرتفعة عن باقي أسنانه بجانب الأسنان التي توجد بمقدمة الفم بالفك العلوي (كنوع من الزينة). وطلب من خادمه أن يقوم بتصويره، وأخيراً أصبح جاستين مستعداً للانطلاق، قابلته ماريا وبادرت بالسؤال بشكل فيه نوع من الاستغراب أعهدك دائماً وسيماً وجذاباً، ولكن هذا البريق غير المسبوق في عينيك لم أره من قبل، فتبسم جاستين ورد قائلاً ليس بالشيء المهم إنما أشعر بنوع من الراحة.

انطلق جاستين وصديقه إلى المدرسة التي تم تحديدها من قبل طبيب نفسي بعدما سمحت له مديرة المدرسة أن يجلس مع بعض الطالبات اللواتي يُعانين من بعض الاضطرابات النفسية خلال تواجدهن في الدوام المدرسي وطبيعة علاقتهم الاجتماعية والعائلية.

كان هناك فحص طبي للطالبات، جلس جاستين وماريا، ورحبا بمن كان متواجداً في الغرفة حرصاً على المراقبة.

وما انتهى الفريق من الصف الأول، وطلبوا الصف الآخر، وكانت من ضمن الصف فتاة مقابلة بشكل مباشر لجاستين، لفتت انتباهه فتبسم بشكل عفوي، كانت الفتاة تقابله بخط النظر، فتغيرت ملامح وجهها بالاستغراب والكبرياء تخلله الحياء الراقى، رفعت الفتاة حاجبها مع لفتة بسيطة من شفاهاها، نظرت إليه بنظرة تشمل كل معاني الأنوثة ذات الكبرياء الراقى. تفاجأ جاستين بردة فعل الفتاة كانت المرة الأولى

أستطيع اتخاذ القرار الصحيح؟ ها قد شُلت قدراتي الفكرية من جديد كبركان خارج من سباته، أصبحت أغلي، أنام على لا واستيقظ على مبررات نعم كالمراهق أنتظر إشارة السماء، لو أمطرت فنعم ولو أشرقت الشمس فلا أو العكس.

أعتقد أنني لست كأبي شاب من عاجها، وسيكون وجودي بمثابة لعب بالنار. وفي نفس الوقت لربما ستسعدنا رؤيتي من جديد، وخاصة أنها لا تعلم ما حصل؛ لأنها كانت غائبة عن الوعي، لا أعلم كيف مر هذا اليوم وما قراري النهائي؟ وجدت نفسي في المكان نفسه، أشعر أنني كطفل وأنا أرقص على الطاولة في سنواتي الخمس، ووالدتي تنظر إليّ بحب وحنان. الأجدد لعب دور الطبيب، لست أعلم بالضبط، ما أصعب الانتظار، كأنني أراها فريسة، وأريد أن أكون القناص الماهر، فإنه من يحسن الانتظار، ينتظر ريثما تنهار الأعصاب، يا إلهي ما بالي أهذي. نحن في غابة؟ لكن جاستين لم ير الفتاة حيث كان يقف في ساحة المدرسة محاولاً البحث عنها بناظريه، في وقت الفراغ المدرسي انتهى الوقت ورجعت الطالبات إلى فصولهن، قام جاستين بجولة في المدرسة، وعندما نزل من الطابق الثاني في المدرسة كانت جالسة في ركن صوب الساحة فأحست خلفها وقع خطاه المرتبكة، وكان الجميع قد رحل. فلم تحملني قدمي، فكيف أقوى على الوقوف وجسدي لو أطاوعه يركع لمدى براءتها التي فاقت كل تطلعاتي؟

تمر بلحظة هدوء، إلا وتتبعها بشهقة خوف، وقف جاستين وأتى بحقنة مهدئ دون أن تراه واقترب منها مع محاولته إخفاء الحقنة وطلب منها أن تغمض عينيها للحظة، وقالت بصوت فيه بحة من شدة الخوف والتوتر ليش؟ قال لها: اطمئني لا تخافي أريد أن ترخي أعصابك قليلاً، فاستجابت لما طلبه منها وكشف عن يدها وأعطاه الحقنة بكل هدوء وخفة إلى درجة أن الفتاة لم تشعر سوى بوخزة خفيفة ونظرت إليه، ولكن وقت المهدئ لم يعطها الفرصة لتتكلم. أخذت الحقنة مفعولها بسرعة وشعرت بالنعاس وتراخت أعضاء جسمها وغرقت في نومها... جاء جاستين بغطاء خفيف ووضعها عليها، وجلس بجانبها بحيث حاول جاهداً ألا يدقق النظر فيها، بدأت دقات قلبه تتسارع وشعر بتوتر شديد، لم يستطع أن يتركها. خرج جاستين مسرعاً من الغرفة دون أن يلتفت وراه، وبدت حالة الاستغراب تظهر على ماري، طلب جاستين منهما الرحيل... لم يستفسرا عن السبب؛ لأنه لا يحب كثرة الأسئلة...

وصل جاستين إلى غرفته في الفندق الذي يتواجد فيه، وكان شديد التوتر والعصبية، وكان من عادته عندما يغضب يكسر أي شيء أمامه؛ ليهدأ، ضرب بيده على المرأة الأقرب إليه للتفيس عن غضبه، وجلس يبكي على ضعفه ويدور في صدره ألف سؤال. لماذا ضعفت أمامها؟ من تكون هذه الفتاة؟ يغمزني إحساس بانتصار ما، أود أن أصرخ، أو أطير، يا إلهي كيف وضعت نفسي في مهب الضياع... لا بأس، لا زال أمامي الوقت للتراجع، وأن لا أعود مرة أخرى، يا ترى هل

تفاجأت سارة بمعرفته لاسمها وحاولت أخذ القلادة من يده، ولكنه أمسك بيدها بقوة حاولت سارة جاهدة أن يترك يدها، وبدأت في الصراخ. وقالت له:

- ابعد عني.

- لن أفعل طالما ترفضين الحديث.

- كيف يعني بك أحكي معك فهمني إياها؟ وبعدين مين أنت من الآخر؟ إيش بك مني؟

- لا شيء أنتِ تعاليت عليّ بنظراتك ماذا عنيتِ بذلك؟

- ولا حاجة ما عنيت أي شيء بس أنك تبسمت للبتت الغلط، وأنا ما بحب الناس الشايفة نفسها بجمالها، وبجمالك بتقدر تلفت نظر أي بنت بس أنا لا وبعدين رجع لي قلادتي.

حاولت جاستين أن يعرف منها أي شيء عن حالتها النفسية بالطرح المستمر للكثير من الأسئلة السريعة، مراراً وتكراراً حتى بدأت الفتاة تستجيب لهذه الأسئلة وتعطي بعضاً من الإجابات، وأحياناً تتراجع، ويرجع جاستين يسأل ويسأل... وبقياً على هذه الحال، وفجأة صمتت جاستين وبدأ يتقدم نحوها، ولكن ما إن اقترب منها أكثر بدأت بالصراخ والبكاء لا تقترب مني أرجوك، سألتها: ما بك؟ قالت له:

- مين أنت وأيش بك مني؟

- أو ما تعلمين من أنا لقد عرفتك بنفسك سابقاً؟... فجأة طرق الباب.

- سارة أسرع استلقي على السرير.

- قالت: وليش يعني؟

يا إلهي أحببت خلقك حين منحته سحر البراءة، لا زال بإمكانني الانسحاب بهدوء، وسأفعل ذلك بعد ما أسترد أنفاسي، لكنه تراجع وحاول أن يقطع شرود ذهنها، ويلفت انتباهها لكنها لم تستجب، فقال لها:

- هل لي أن أتحدث معك؟ لكنها لم تعره أي انتباه، ورفضت الحديث معه، وحاولت الانسحاب لكنه اعترض طريقها، وقال لها:

- لن أدعك تذهبين إلا عندما تخبريني من أنتِ؟

لكنها لم تتنطق بكلمة، أشار المرافقون لجاستين بصوت ليأتي، فقال لهم:

- إني قادم تفاجأ جاستين بلحظة حديثه مع المرافقين أن الفتاة اختفت، ولكنه وجد قلادة مكان تواجدها تعود لها، تبسم جاستين عندما أمسك بها ووضعها في جيبه.

بقي جاستين مستمراً في زيارة هذه المدرسة لمدة أسبوع، وكان يراقب الفتاة عن بعد، واستطاع أن يعرف بعضاً من حياتها. تفاجأ بوجود اسمها من ضمن الفتيات التي سيجري عليهن دراساته النفسية. وفي اليوم السابع كان جاستين مجتمعاً مع إدارة المدرسة، وبعد انتهاء الاجتماع دخلت الفتاة إلى الغرفة (غرفة الصحة) للطالبات المريضات، وكان يبدو عليها التعب، طلبت مديرة المدرسة من جاستين أن يعاينها، فوافق بسرعة بقي مع الفتاة لوحدهما في الغرفة فغمز لها وهو ممسك بالقلادة، وقال لها:

- سارة هل هذه لك؟

استغرب جاستين من ردة فعلها، فقال لها: لا تثيري أعصابي، وافعلي ما أمرك به هيا، ولكنها عاندته، أمسك بيدها بقوة ووضعها على السرير، وذهب ليفتح الباب، كانت المديرية قالت له:

- دكتور هل انتهيت نريدك أن تقوم بجولة تعريفية عن نفسك في صفوف الطالبات فوافق جاستين، قال لها: انتظريني لبضع دقائق، وسأكون قد أنهيت معاينة الحالة. أغلق جاستين الباب ووقف إلى جانب السرير الذي كان قد وضع سارة عليه، وكانت هادئة جداً جلس إلى جانبها واستطاع أن يفسر شخصيتها والحالة النفسية التي تمر بها سارة، صمت لبرهة. وقال لها:

- هيا اذهبي لصفك أنا مشغول الآن، سنتحدث لاحقاً وعند خروجها من الغرفة لفتت نظرها إليه برهة.

- أنت بتحلم تحكي معي مرة ثانية، سلام، تبسم جاستين.

- إلى اللقاء يا سارة...

خرجت لا سعادة تغمرني ولا حزن، أحسست والليل يسدل خيوطه على كتفي، أيقنت أنني قد سقطت في شرك العنكبوت...

أبيت أن أستقم كقسم أبقراط، بيدي قلم رصاص مكسور السن يتراقص مع أنغام الهوى، في نظراتها تتفتح الزهور وتحمر وجنتيها جمالاً، محالاً أن أرتوي منها، نداء الله يخترقني إن فكرت بتركها وحيدة، شتات أفكار ونبضات قلب لا تتوقف، أنسخ أسمها آلاف المرات في اليوم، أردده في صدري، أرتشي من الليل ضياء، استوطنت في أوصالي، فكيف أرحل ولا أعود لها؟ إن الله كافأني بها شعوري بالسعادة

التي تكمن في داخلي، اتخاذ القرار أمر صعب لكنني صادق مع نفسي، سأنتهي بعض الأمور في تركيا قبل رجوعي!

خرج الكل من قاعة المؤتمر بين ضحك وتعقيب ومصافحة على ما قيل.

تقدم نحوي أستاذي البروفيسور مبتسماً، أعجبنى تدخلك وإن كان فلسفياً أكثر منه علمياً. رددت وأنا أصافحه، الفلسفة أم العلوم يا أستاذ. دعاني إلى فنجان قهوة بمقهى الفندق الذي نُظِّم فيه المؤتمر، ثمة أناس كلما جلست إليهم تشعر أنك كبرت أكثر، لم تفكر بزيارتي منذ فترة علاجك للفتاة. أهناك أخبار عنها؟ أجل، علمت من مديرة المدرسة أنها حاولت الانتحار في فترة سابقة، كيف علمت؟ هل التقيتها مؤخراً؟ أجل، قبل وصولي إلى تركيا بيومين تحدثت مع المديرية وطلبت سجلاتها ومعلوماتها، وبقيت مراقباً لها.

- وهل من الضروري أن تطلب معلوماتها؟

- ليست الأشياء الضرورية هي التي تحركنا في هذه الحياة.

- اسمعني جيداً يا عزيزي أنت تعيش فراغاً عاطفياً، وهذا ليس جيداً لك، لا كطبيب ولا كرجل.

- ولكنني...

- دعني أكمل كلامي، الطيبية ماريا أوخينيا امرأة مناسبة جداً لك، وهي تميل إليك بالرغم من تشبث غابرييل بها، أعطِ فرصة لنفسك.

- ها قد عدنا، أرجوك! الحياة أكبر من الطب يا عزيزي.

من جديد

استغل جاستين فترة وجوده في تركيا، واستمر باستنشاق القراءة الطبية، والاجتماعية، والثقافية، وتعلم بعض الثقافات التي تكون سناً له خلال رحلته الشاقّة، كوّن جاستين علاقات اجتماعية لا بأس بها، وبهذا حصل تغيير ملحوظ على شخصيته مدة، وتقدم بطلب الماجستير في تخصصه علم النفس.

واجه جاستين الصعوبات الجمة منها الشعور بشيء غريب يراوده في كل حين، وسارة التي أصبحت تسيطر على الجزء الأكبر من تفكيره، ففي كل وقت يتذكر نظراتها له بأول لقاء وسر انجذابه لها، حاول جاستين قدر المستطاع أن يبعد كل ما يؤثر سلباً على ما يطمح إليه.

أفاق جاستين مبكراً وركض على شاطئ البحر كعادته، ومن ثم جهز نفسه ليقوم بجولة ترفيهية، وبدأ يجوب الشوارع كان الجو رائعاً، وذهب بعدها إلى جولة بالمكتبات الثقافية كان دائم التردد في مكتبة أتاتورك⁽¹⁾ وهي تقع في منطقة تقسيم، ليبحث عن بعض الكتب التي تفيد بحثه في الماجستير، ومن ثم عاد إلى السكن الذي يقيم فيه، وبدأ بالتجهيز والدراسة الجدية لخطواته القادمة وأبحاثه التي يجب أن يقدمها.

- إذن ابحث عن فتاة أخرى، تعلم أن جميع الفتيات يردن فقط إشارة منك.

- يجب أن أكون عاشقاً، سأحكي لك نكتة واقعية:

صادف أحد مرة صديقاً له، وسأله لماذا انفصلت عن زوجتك أجاب الصديق لأنني لم أعد أحتمل الوحدة. لم يبتسم، استوعب قصدي، وقال بجدية وعيناه يملؤها عطف شملني به من أيام التخصص: هذا مفهوم؛ لكنني أخاف أن تضيعك الأيام أمام اختيار لن تستطيع أن تخرج منه بسلام. أن تكون عاشقاً أو طيبياً... عشقك أو مجرد إعجابك بهذه الفتاة التي حاولت الانتحار. انتحار طيب. ولست مستعداً لأن أخسر أفضل تلاميذي، لمحتنا ماريا أوخينيا من بعيد وهي تتجه نحونا، ابتسمنا في تواطؤ، وقفت قائلاً: عليّ الذهاب، لا أمل، عليك التفكير في ما قلته لك، ولنبق على تواصل سلمت عليها وغادرت مسرعاً، ثمّة أوهام لا تحلو أحلام الحياة من دونها.

1 - المدينة التي لا تنام، تفتح 24 ساعة خلال اليوم، تستقطب بعض عشاق الكتب الذين يظلون حتى منتصف الليل. صُمم بناء المكتبة سداسي الأضلاع غير اعتيادي من قبل المهندس الشهير سداد حقي إدم

مرت سنتان برغم الصعوبات التي واجهها جاستين إلا أنه استطاع أخيراً أن ينهي بحثيه، جهز جاستين نفسه لمناقشة بحثيه أمام الوفود الطبية من كل أنحاء العالم، وقف أمام المرأة، وقال:

- ارحلي عني أنت نقطة الضعف التي أراد القدر أن يقتلني بك، وبدأ يحدث نفسه؛ ليخفف عن حالته النفسية. وقال لنفسه: هيا يا جاستين لا تدع الأفكار تسيطر عليك، وتقدم وقف بكل جرأة أمامهم وأثبت وجودك؛ لتصبح الطبيب الأول، فإنني في هذه اللحظة أحتاج لقلبي وعقلي متحدين ما باليد من حيلة، فأنت قلبي وعقلي يا معشوقتي الغالية. راجع جاستين بحثيه، ودخل المكان الذي يتوجب عليه المناقشة فيه، تنفس نفساً عميقاً رحب الجميع به، وبعد الخطبة التقديمية طلبوا من جاستين أن يبدأ مناقشته، أنهى المناقشة الأولى في التنمية البشرية، ومن ثم طرح قضية مهمة للنقاش تتمثل في (أهمية التفريغ الانفعالي). وأعطى جاستين مساحة للحوار والمناقشة، تفاعل الجميع مع جاستين،

أنهى جاستين المناقشة بقسم المهنة ومحافظة على شرفها. طلب المقدم من الجميع الوقوف لإلقاء البروتوكول الخاص بإعطاء جاستين درجة الماجستير. وقف الجميع وألقى رئيس اتحاد الأطباء العالمي البروتوكول وحصول جاستين صاري أحمد على درجة الماجستير. قدم جاستين الشكر للجميع، وعبر عن امتنانه لكل من ساعده في الحصول على هذا الشرف وشعوره بالسعادة.

أجرى جاستين العديد من الاختبارات النفسية لبعض المرضى الذين يعانون من الاضطرابات النفسية والعقلية، وكانت نسبة نجاحها عالية. وبذلك أثبت جاستين للعالم أنه من الأطباء الذين يملكون المهارات العالية، والكفاءة التي تستحق كل التقدير والاحترام وربما سيكون الطبيب الأول في العالم.

أراد جاستين أن يرتاح بعد هذه الشهور المتعبة فحاول النوم، ولكن تفكيره المستمر في سارة لم يعطه فرصة للراحة، أمسك جاستين بالقلادة، وبدأ ينظر فيها والدموع في عينيه، وبدأ يردد سارة سارة سارة ماذا فعلت بي؟ يتذكر عينيها ذات اللون العسلي الفاتح، والبشرة البيضاء، ووجه بملامح طفولية، كانت قصيرة القامة وجسم ممشوق... عندما رآها بزى الثانوية.

فكر جاستين فيها بكل جدية، وبحالتها النفسية التي تمر بها؛ لأنها تعاني من اضطرابات نفسية تتمثل في العزلة الذي أدى إلى اضطراب علاقتها مع الآخرين والخوف من المواجهة، وحاول ربط المواقف معها مع بعضها البعض؛ ليخرج باستنتاج أنها تعاني من النسيان الذي سببته الحالة النفسية، والتي تمر بها وشعورها دائماً بالتعب والإرهاق، وأنها تحتاج للمساعدة ويجب الإسراع، ظن أنها تفكر بالانتحار من جديد، وأنه يتوجب عليه مساعدتها، طالما أنه استطاع أن يتوصل لما تعانيه؛ لأن هذا يتمثل بواجباته المهنية.

نداء القلب

هاتف ماريا أوخينيا وأخبرها أنه سيذهب إلى غزة، ويريد مقابلتها قبل رحيله. التقت ماريا مع جاستين في مطعم للحديث عن خطواته القادمة، استرسل جاستين لها بعدما بادرت بالسؤال عن أحواله. مرحلة صعبة التي أواجهها، لست أحسب خطواتي بالدقة التي كنت ماضياً بها، لدي رهبة من القادم، ولكنني أتمنى أن تسير الأمور بخير.

- ماريا.

- أحبها؟

- من؟

- سارة الفتاة التي تُجري عليها الدراسة في غزة!

- أتمنى أن يعيد الله لملمة شتاتي بحبها.

في اليوم التالي أمسك جاستين بالقلادة ووضعها في يده، والقلادة التي تعود لصديقه نيكولاس، والساعة التي أهداها له العجوز في اليد الأخرى. والسلاح الذي كانت قد وضعت أمه له في الخزانة إلى حين أن يكبر قبل وفاتها (مسدس)، وضعه على خاصرته كان هذا السلاح مرخصاً يعمل ببصمة الأصبع.

انطلق جاستين مع السائق الخاص به إلى المطار بعد وصوله إلى قاعة الانتظار جلس ينتظر إعلان انطلاق الطائرة، لاحظ شاب بجانبه يتكلم على الهاتف وهو منتصب الصوت بلهجة توحى بخوفه وقلقه. نصف ساعة وهو يتعارك على الهاتف عندما قام بإغلاق الخط

أجابه صمت مخيف، سأله جاستين إن كان يستطيع أن يقدم له المساعدة، قال له: شكراً لا أعتقد أن هناك أحداً يستطيع تقديم المساعدة لي، أجابه جاستين: فقط أخبرني ما الخسارة التي ستخرج بها إن أخبرتني؟

إنني فلسطيني الجنسية وأدرس هنا في جامعة بوغازيتشي في منحة دراسية منحت لطلاب غزة، لدي إجازة من الجامعة، ولكن عائلتي عارضت الرجوع إلى غزة خشية عدم السماح لي بالرجوع هنا مرة أخرى. ولكن لم لا يسمحون لك؟

بسبب وضع معبر رفح البري البوابة الوحيدة لغزة إلى العالم الخارجي وهو مغلق من الجهات المصرية، وكما تعلم غزة محاصرة من كل صوب وحذب!

أنا سعيد بك لأنك ستكون رفيقي في رحلتي إلى غزة، وأستطيع مساعدتك لا تقلق.

في حين موعد الإعلان عن انطلاق الطائرة، كان جاستين والشاب في نفس الكرسي استعدوا للانطلاق بعدما أوصوا بربط حزام الأمان إلى حين استقرار الطائرة في مسارها. في ظلمة الليل لم يستطع جاستين النوم، بدأ يوقظ معتصم، معتصم.

- ما بك؟ ماذا يحدث؟ فرغ معتصم من نومه.

- هل لي بطلب؟

- نعم تفضل لكنك أفزعتني.

يخضع للتفتيش ولم يطلبوا مني ذلك، واستفسرت معتمصم وأخبره أنهم اعتادوا على معاملتنا كإرهابيين.

استقبال بسيط في مخيم خانيونس في غزة المحاصرة، عائلته استقبلته بالأحضان وسهرة مع أصدقاء معتمصم ملتقين حول نار مشتعلة نلتحف هواء بلد محاصر، الغريب أنك تجد في أحاديثهم حب الحياة والطموح والإرادة، لم أشعر بالغبرة ولكنني، لا أكاد أنفك عن التفكير في سارة وكيفية إيجادها جاءني سؤال مفاجئ من أحد أصدقاء معتمصم: ما الذي جاء بك إلى بلد محاصر؟!

ابتسم شعرت أنني أحتاج وجودي هنا، وفلسطين جزء من حبي للحياة في الحرب التي مضت كنت مع أسطول الحرية فتمنيت وجودي هنا مرة أخرى أحببت طريقة عيشكم وحبكم للحياة، ولدي بعض الأعمال التي سأنهاها...

نحن سعداء بك سنعلمك معنى العيش بجنون، سنلعب غداً كرة القدم. ما رأيك؟ حسناً...

بعد مغادرة أصدقاء معتمصم أخبره أنه يريد الذهاب إلى المدرسة التي كانت تدرس بها سارة، قال له: عليك بالراحة وال صباح راح. جن جنون جاستين حينما أخبرته مديرة المدرسة التي كانت تدرس بها سارة عن خبر انتقالها إلى مدرسة أخرى. سأل معتمصم ما الذي يتوجب فعله؟ قال له: لا تقلق سنجدها في إحدى مدارس الثانوية.

- حدثني عن فلسطين، ضحك معتمصم وسرد:

سأحدثك عن اتكائنا في العذاب، لنتوضاً، نرتوي من صواريخ F16، نرسم بها فلسطين، غزي أنا محاصر والدم جريحي ورفيق دربي، أبي يناديني من تحت الركاب أهرب يا بني فأمك قتلت، هاجر إلى أوروبا وسر في البحر غرقاً! مازال حبه يُحييني، القدس قطعة من روحي في مخيمات اللجوء نُعتصب. نتساقط كحبات زيتون ذابلة، ما أسوأ عذاباتي بك سيدتي ما أفسى عقوباتك، بضجيج شهواتهم نفتقر الطعام في الحروب من تراب الوطن نكبر، من تراب الوطن نكبر .

ساد صمتٌ بينهما بعد انتهاء معتمصم من سرده تلك الكلمات التي عجز جاستين أن يتحدث بعدها.

- أوجعتني حقاً أحسست أنني لم أعرف فلسطين يوماً.

- إنك أقرب منها الآن.

- نعم أتمنى أن أجوب غزة بكل شوارعها.

- إذن أنت في ضيافتي.

- لا أريد أن أكون ثقيلاً.

- لا يا رجل انت شرف في بيتي ثم إن أم معتمصم ستدلك بأكلاتها الطيبة.

في الصالة المصرية ارتحنا قليلاً من عناء السفر، اقترب موعدنا لدخول غزة المحاصرة، قدمنا الأوراق اللازمة وطلبوا من معتمصم أن

- أتعلم يا جاستين؟

- حتى الجدران لا متسع فيها لنزرع شتلة زيتون تعيدنا إلى جنين، وقبله حنين للناصره، نرسم دائماً دمع اشتياق للقدس، أسواقها، وشوارعها دائماً ما نحاول أن نكتب ما يرتدد فينا ويصرخ لكن الوطن أعمق من أن يُكتب ويستحق أن ننثر شعاع الأمل، ونكتب لخريجي الجامعات دون عمل، ولزهر الليمون، ولعيون الأطفال، ولورق الخبيزة، ولحدود الوطن لمن يعانقون البندقية، وللشهداء والجرحى، كل هذا وما زلنا نقاوم ما زلنا نصافح المسرى لعل غداً يباغتنا بقبلة من أحجار القدس تعتلي أسطح السماء بين رصاصات المحتل ثاراً وعشاقاً يحملون جثثنا شهداء نرفع أصبع السبابة ننطق الشهادتين، مبتسمين نحملهم على أكتافنا بالتكبيرات نهلل، نركض مسرعين نحاول إنقاذ شهيد آخر لا الهلال الأحمر ينسق ولا أمن سلطة يصرخ رغم كل ذلك نستمر ببناء بيوتنا مجدداً فنحن أمل يفدي.

تركت كلماته صدى كأن الجرح بات يرتد في داخلي، ما أعظم هذا الشعب! ألا يستحق فرصة للحياة؟

بعد قطع مسافة ثلاثة شوارع مشياً، اقتربوا من مدرسة الأونروا الأولى التي من المرجح أن تكون سارة فيها، دخلوا غرفة المديرية. من المؤكد أن جاستين معه الإذن لاستكمال حالة سارة منذ تواجدته في غزة للمرة الثانية بعد الحرب. قدّم جاستين بطاقته للمديرية وسأل عن الطالبة سارة لكن أمه خاب. لا تقعد الأمل سنجدتها...

رجع جاستين ومعتصم إلى المنزل على اتفاق مع الأصدقاء أن يتجمعوا في ملعب المخيم للعب كرة القدم. عد الحكم ثلاثاً لبدأ الشوط الأول. تفكير من نصب جاستين على سارة، وفقد تركيزه في اللعب. هيا يا جاستين ارم الكرة. خطف أحد لاعبي الفريق الآخر الكرة لينتهي بخسارة فريق جاستين ومعتصم، ما بكى جاستين نيلها، وإنما إلى سارقة تفكيره. أرجوك غداً أتمنى أن نبحت في المدارس، لا تقلق أعدك أننا سنجدتها.

في أزقة المخيم تجد البيوت متلاصقة ببعضها، منها المهدم لم يبق أثر سوى الذكريات، ألم يعمروا البيوت إلى الآن؟ البيوت لم تعد تشد على أجزائها لتستر عوراتنا!

أخذني معتصم إلى الحدود كان عدد من جنود الاحتلال خلف السياج الفاصل، أخبره معتصم أن هذا ما يسمى بالسياج الفاصل وتلك أبراج مراقبة ودباباتهم تتقدم كلما أرادت ذلك.

- ألا يوجد رادع لهم؟

- أخبرك أمراً؟

قال له معتصم: تفضل.

على شاشات التلفاز أجذكم شعباً عدوانياً، لا ضحكة لكم، لا وطن تجوبون به الشوارع، وتتسامرون، وكانت غزة أبعد لي عن حلمي من أن أعيش تقاصيلها، أنتم شعب رغم قضيتكم العادلة إلا أن من يزرها يجد الجرح أعمق بكثير من شاشات التلفاز فخور أنني هنا.

- وعندما دخلت سارة الغرفة اندهشت بوجوده، وحاولت الخروج لكنه سبقها وأغلق الباب، وطلب منها أن تجلس. وبدأ يتحدث إليها بكل راحة:
- لماذا أنا هنا؟
- لتبحثي عن نفسك!
- هههه، حقاً!، يا لك من تائه!
- لماذا منعنتي من الانتحار؟
- لماذا قررت أن تضعي حداً لحياتك؟
- الانتحار ظاهرة كونية وكل منا ينتحر بطريقة الخاصة.
- أتهربين؟
- لا بل إقدام، على حياة لا وجود للأحياء فيها.
- وضعت يدها أعلى جبينها كمن يحاول تذكر شيء ما، ثم رفعت عينيها نحوه، وكأنها تخاطب العالم بأسره، مسترسلة. لم يسبق لك أن كتبت رسالة عشق أو فكرت بالانتحار، فكيف إذن تجرؤ على القول إنك عشت؟
- هزمتني الكلمات فلم أستطع كبح فضولي.
- هل هذه الأبيات لك؟
- لا إنها لشاعر البوسنة عزت سراييج... لكنني أحببت تبنيها.
- يا لهذه الفتاة!
- قررت حسم الأمر.

- إنني هنا لأساعدك على فهم نفسك أكثر، ومعرفتك لنفسك ولماذا قررت العزوف عن الحياة؟
- وهل لي شرف الاختيار؟
- نعم، لكن سنتوقعين على تقريرتي.
- أفضل إذن أن أكون بطلّة بدل أن أكون مكرهة على ذلك.
- متى نبدأ؟
- متى تحيين هنا لإيجادك؟
- حسناً غداً في نفس الموعد.
- انتهت الجلسة لينتهي صداها في كل منا.
- الخلود ليس هو الامتداد في اللازم، بل هو الامتداد في أعماق اللحظة. لكن نبذة انكسار في صوتها جعلتني أشك في أنها تحاول عبثاً إقناع نفسها بنظرية تضاعف من أزماتها الوجودية، سألتها: ألم تتعبي من التجوال في خيال ليس له نهاية؟ أجابت بنبرة تشي بمرارة:
- أشعر أحياناً بتعب شديد، تعب، تعبي مسبقاً من أشياء جميلة ليس لها نهاية. لحظات دون اكتمال، أتمناها أبدية وأخافها متى ظهرت في فكري.
- أتحيين الأطفال؟
- أكره الزواج.
- وما دخل الزواج بحب الأطفال؟

وخيم صمت عليها، وبقي صامتاً عليها تكمل، أحياناً أشعر أنني طفلة تحتاج أن تستعيد طفولتها، التي سرقت منها وفاقد الشيء لا يعطيه. صمتت قليلاً واستأنفت، كل منا يود أن يترك أثر خطواته فوق قشرة العالم، وكل منا ينشد الخلود.

- أتشعرين أنك مذنبه وتستحقين العقاب؟
- أعلم أنني لست الإله، ولكنني أؤمن بحدوث ما نرغب به بقوة.
- كلنا تمنينا الموت من أشخاص آلمونا ولو لمرة، هذا إحساس إنساني، إذ إن بين الحب والكراهية خيطاً رفيعاً، والكراهية لنفسك حد الموت لا يولدها إلا حب حد الموت.

- ولا يموت بالتمني.
- كفاك عقاباً على ذنب وحياة لا يد لك فيها.
- حقاً يكفي أن نجعل أحداً يشعر بالذنب لنفعل به ما نشاء.
قلت وأنا أودعها عند الباب:

- ستجدين التقرير على مكنتي غداً، وأنا سأسافر عندي عمل.
- أغبطك، سلم على شياطينها، أما الملائكة فلن أحملك عناءها.
استطردت بابتسامة ماكرة.
- أتظن أنني شفيت فعلاً؟
وقبل أن أجيبها.

- سنقول لي كما يقول المحللون إن تهوين الشخص على نفسه هو عقاب ذاتي. وستقول إن خطايا النفس والضمير خلفها خوفنا من

الموت أو ندمنا على هذه الحياة. وأيضاً ليس ثمة أفطع من حياة نقضها بالندم، بل وأكثر، إن ندم الحياة نفسها هو الموت، إنني تعبت من الأخطاء. نظرت إليها. سأقول إنك وضعت كلمات على جراحك وهذه بداية العلاج، وحوادث الطفولة تخلف ألماً قد لا نمحوها بغسل المعدة، ولكننا نتعلم أن نتعايش بها ومعها. وأنه باستطاعتك تبني طفولتك من جديد، والكتابة هي علاجك الوحيد، استمري.
- شكراً.

تبادلنا ابتسامة شبه تواطؤ. ويا ليت لو أن قلوبنا أبواب نغلقها متى نشاء.

عاينت بعض الحالات في المستشفى، وتركت بعضاً من النصائح، انتابني شعور بالقلق وأنا بين السحاب، تمنيت لو أستلقي على هذا الفراش القطبي في الطائرة، وأستسلم له إلى حد الانتشاء. أعطت المضيئة بعض التعليمات، في حالة نقص الأوكسجين وكيفية الاستعمال. يا إلهي، كيف أقلق مما ينتظرنني على الأرض وأنا لم أنجُ بعد من السماء! وصلت إلى منزلي، لقد ابتعدت عني لفرط ما تنازلت وتساهلت حتى لم أعد أعرف نفسي، أصبحت بلا روح، وإن ضحكت فيبلا رنين، وإن بكيت فيبلا شجن. تذكرت سنة التدريب كطبيب في المستشفيات قبل أن أتخصص في علم النفس. كيف كنت فخوراً بالزوي الأبيض، وفخوراً بما تعلمته على حساب أنين الآخرين، كنت أسعد بوخر الإبر في مكانها الصحيح، ولا آبه أنه مريض. أخذش حياءهم،

العشرين، حين النظر إليها تغمرك بنشوة تجعلك لو تسلم نفسك لشفاهاها المكتنزة، تزرع فيك الحياة وتسلبك في آن. وأنت تنتظر في عينيها تخترقك آلامها.

اليأس والتعب والعذاب والبكاء في جسدها، تكاد تنن، ويأتي الألم. تكاد تسمع صراخها، وأنت تنتقل بين هذه الأجساد، تنتقل بين يأسك، وتعبك، وحزنك، وعذابك، لتجلس أحياناً في صورة المفكر متأماً هذا الذي يدمر الحياة. أليس هذا المرض يبني ويهدم، ويقتل أحياناً إلى درجة الخالدين أبداً؟

صرخات الفتاة لازالت تدوي في فراشها، بينما أبى الموت أن يخلد لحظات انصهارها الخلاق في هذا المستشفى المليء بالألم. أحياناً يغدق علينا الموت بكرم لم يكن من شيم الحياة. خرجت فوجدت نفسي في حديقة، أتوه بين ثنايا ورودها وأزهارها، لم أجد نفسي إلا جالساً على كرسي، أخط على ورقة بلون القمح، بلون الأرض المحبة، الضاجة بالحياة، تخفي تحت كبرياتها قوة، وليس إحساساً فطرياً، أسعد بحجم المدى، وإذ تطبق تصبح بؤرة للحنان.

تشي رعشات خفيفة ببعض الحياء، كمن يخجل من البوح أو الاستسلام للذنب، وكأنها تلامس الحياة وتخافها. أدخل مراسم السباحة في مسبح مجاور للحديقة، وفوق طقوس متعبد، كمولع أحترف المد والجزر بعدما شعرت بالتعب من السباحة. نهضت مرتعباً، لسان خوفي يقول: لا بد أن أحسم الأمر.

حين أقف أمام عريهم غير مبالٍ بمشاعرهم، وأنا أناقش نظريات أكبر مني، بلغة لا يفهمونها، وهم يحدقون ويزيدهم القلق والخوف. أين لي بالهناك؟ والهنا لا يسع تبديني أفقد الهناك الذي ألمم فيه بتبدها، فيما صوتها الطفولي يبددني. قالت:

- كل منا ينتحر بطريقته الخاصة.

- قد يكون في الانتحار استعجال لخلاص ما...

لا بد أنها تجتهد كل ما تبتلعه من بوح، كم هي ذكية، لا شك في أنها ستستوعب نظرياً عدم حبها للحياة لكن المهم أن تتعايش معها. سيحصل هذا، لا محالة، أو أتمنى. عند سكون الليل شعرت بالوحدة، في رغبة أن أرجع بالزمن وأضمها إلي... دخلت في حالة شدة بالغرابة، رعشة أنامل، وفيض دون استئذان، بدأت أكتب، لم أعد إلى قراءة ما كتبت، المهم أنني لامست القلم، لا يهمني نوع الرقصة التي أؤديها المهم الرقص فقط.

خرج جاستين اليوم من المنزل، شعر بحيوية فائقة ورغبة في العيش، رغبة أن يمتص نسغ الحياة، تعلم أن يستفيد من الإيجابيات، ووجع القلب ليس سلبياً تماماً إنَّه يقربنا منا، يعمق قدراتنا، ويغير فلسفتنا للوجود، قد يرهقنا، لكنه يجعلنا أكثر تشبهاً بالحياة.

قادتني قدماي بخفة المتلهف لمستشفى السرطان. عجبت... كيف استطعت أن أبتعد عن هؤلاء الناس، قضيت ساعات وأنا أتأمل الحالات، أجساد متألمة تكاد ترقص من الألم. وها هي فتاة لم تتجاوز

أحياناً نضل الطريق، لكن يداً خفية تدفعنا للمضي قدماً... أهي دهشة الاكتشاف تكون أقوى من خوفنا؟ أم أنه الحب من يجعلنا نمضي مغمضي العينين نحو الهاوية؟ لا يزال أمامي الكثير، ويمكنني أن أصوب سهمي نحو الهدف.

وصلت غزة، وقفت على باب المدرسة لبرهة كأني أتعرف عليها لأول مرة، دخلت المدرسة بعقل مُتقد، برغم صخبها إلا أنني أشعر بالوحدة، أبحث عنها، أحن إليها، وإلى حديث روحها.

بدون تريت أو تفكير طلبت من مديرة المدرسة مقابلتها، أحياناً يحسم قلبنا في ثوان ما نعجز عن حسمه في أعوام. وأنا في طريقي إلى الغرفة، شعرت أن حاجتي لها ظامنة، خطاي تسابقتني لفتح قوقعتي العميقة؛ لألتقط الدرر التي تكتنزها، أتساءل كيف استطعت أن أعيش كل هذه السنين بدون مصادفتها، لا أحد غيرها استطاع أن يمنحني أجنحة، وصلت حقيقة الظل، واكتنزت من القوقعة دررها، في البداية أشكر لك وجودك... كيف حالك يا سارة؟ يا ليتني أستطيع تأصيل تجاربي، التي أصبحت لها بصماتها إنك تتميزين بشفاافية وسلاسة بالتعبير، أجبر نفسي على الكتابة، كما الأموات؛ لأحاول محاورتها. أكتب في عزلة تامة عن ضجيج هذه الفظاعة التي تحمل اسم العالم. هناك مساحة للحلم، فكري بتعدد وجود الحياة، ادخلي إلى المجهول العميق.

- سارة أريدك أن تعبري معي القارات، وتطوي المسافات، ولننسجم معاً، وماذا تعني؟ أسبوع لا أكثر ونخرج من الظلام إلى النور. وماذا سنفعل بهذا الأسبوع؟ أرجو التوضيح ما أقصده هو: أن نخرج أنا وأنت.

- لأين؟

- إلى المستشفى.

- ولكن لماذا؟

وبدأت بالبكاء وهي تقول أنا بخاف من المستشفيات، حاول أن يقرب يديه إليها ليحتضنها، لكنه تراجع، وقال لها:

- اسمعي ماذا اتفقنا ألم نتفق أن نتقي بي، لا أريدك أن تخافي فقط سأعينك وأقوم ببعض الفحوصات لكي أتأكد بخير فهذا ما أتمناه. قالت له:

- ماذا الآن؟

ستهاتف الآن إدارة المدرسة ولي أمرك، وتخبرهم أنك تحت رعاية المستشفى وستذهبن معي للمستشفى وعائلتك ستقوم بزيارتك. اتصلت الإدارة بولي أمر سارة وأخذها بسيارة الإسعاف إلى المستشفى، وكان قد خصص لها غرفة لتبقى فيها وتبقى تحت المراقبة.

أدخل جاستين سارة في الغرفة وطلب منها الاستلقاء على السرير، وكانت ترافقه ماريا أوخينيا، وكان جاستين قد طلب أن يكون المشرف على حالتها، وهو سيتكفل بكل شيء يخص سارة. طلب منها أن تبدل

ملابسها، وتلبس ملابس النوم وأن تطمئن وتشعر بالراحة وأخبرها أن هذه الغرفة لها، وقال لها:

- بعد انتهائك من ارتداء ملابسك سأعود.

بعد ساعة رجع جاستين إلى الغرفة، وكانت قد أنهت ارتداء ملابسها ومازال تلبس الحجاب سألهما لماذا ترتدين الحجاب؟ فأخبرته أن الدين الإسلامي علمنا هكذا. لكن جاستين لم يفهم جيداً ما تقصده، قال لها:

- المهم أن شعري بالراحة وتكون أجزاء جسمك على راحتها.

بعد لحظات جاء الممرض إلى جاستين يخبره أن عائلة سارة قد قدمت لمقابلته. قال له جاستين:

- أخرج وأنا سألحق بك.

- هل تشعرين بالجوع يا سارة؟

بقيت سارة صامئة فتبسم جاستين. وقال لها: حالياً، سأذهب الآن عندي بعض الأشغال التي يجب أن أقوم بها وسأرسل لك الطعام. إلى اللقاء.

رفض جاستين مقابلة عائلة سارة، وطلب من ماريا أوخينيا أن تقابلهم وأخبرها ما يجب أن تقوله. جلست عائلتها نصف ساعة معها، وبعد ذلك طلب منهم الممرض المغادرة، وبعد خروجهم بدأت حالة سارة بالازدياد والبكاء بصوت عالٍ. فقدم جاستين وحاول تهدئتها لكنها كانت ترفض الاستجابة، فطلب من الممرض وماريا أن يساعده وكان السرير

يحتوي على حبال من عند القدمين وقام بربطها وربط يديها على السرير، ولكنها بقيت تتحرك وأعطاه حقة مهدئ لتهدأ وقام جاستين بقياس نبض قلبها وعيناها للتأكد من أن حالتها الصحية بخير.

وفي الصباح جاء جاستين إلى الغرفة وكانت ما تزال نائمة فضغط على أنفها؛ ليمنع تنفسها قليلاً لتفيق من النوم ففتحت عيناها. قال لها:
- صباح الخير كيف حالك اليوم؟ وكيف تشعرين؟
- وايش دخلك أنت؟

ضحك جاستين ضحكة قوية جداً، وكانت المرة الأولى تقريباً التي يضحك عالياً، وقال لها:

- فعلاً أنت فتاة رائعة.

- وما الجديد في ذلك؟

- نعم إنك فعلاً رائعة.

- دلك أشعر بالجوع.

- نعم ليس الآن، الآن أود منك أن تخلعي ثيابك.

لم تدعه يكمل، وقالت:

- نعم شكلك مجنون؟ ايش بتقول، أنت واحد حقير!

فضحك جاستين، وقال لها:

- أود فقط أن أرى جسديك الرائع، وما العيب في ذلك؟

- عن جد أنك حقير.

أو تعلمين أنا أتحملك لكن لا أعلم لماذا؟ أنا أريد فقط أن أقوم بتدليك جسدك فقط هيا بسرعة لا وقت لدي، لا تخافي لن أفعل بك شيئاً.

- بس أنا بقدرش.

- لماذا؟

- أنا بخجل آسفة مش هقدر أنا بخجل.

لا تكوني هكذا اهدئي قليلاً، وثقي بي سأكشف فقط عن المكان الذي أقوم بتدليكك، وسأقوم بتغطية باقي جسدك.

- طيب بس أبعد عيونك عني.

- فعلاً أبعد جاستين ناظريه، وبدأت تخلع ملابسها.

وبعد برهة قال لها:

- هل انتهيت؟

- لا استنى شوي... الآن انتهيت.

لفت جاستين نظره وإذ بها تغطي كامل جسدها، وتخبئ وجهها، ضحك واقترب منها قائلاً:

- هيا اجلسي وهي لم ترفع ناظريها.

وكان حريصاً أن يتحدث معها بما يشعرها بالراحة والأمان وحرص أن لا يدقق النظر بجسدها. انتهى من تدليكها.

أخيراً انتهينا استلقي قليلاً لترجيح جسدك، قام جاستين بغسل يديه، وقدم إليها مرة أخرى.

- سارة كيف تشعرين الآن؟

- أحسن من أول.

- عظيم.

- صرخت عليه وبين الأكل؟ أنا جوعانة.

- انتظري قليلاً سأساعدك بارتداء ملابسك فرفضت.

هيا لا تعصي أوامري أفعل ذلك لأنني لا أريد أن ترهقي نفسك بأي شيء. ساعدها جاستين بارتداء ملابسها وطلب من الممرض عبر الجهاز اللاسلكي في الغرفة أن يأتي بوجبة الفطور، وجلس جاستين ليطعمها كانت الوجبة خفيفة.

- ايش هاد؟

- هذا ما ستتناولينه لتحافظي على صحتك وإن أنهيته سأعطيك شيئاً.

- ايش؟

- أخرج جاستين من جيبه قطعة شوكولاتة.

- هيا انتهي من طعامك وستأخذينها.

- وايش عرفك إني بحبها؟

- ما دخلك؟ لقد علمت وانتهينا فتبسمت.

بعد الانتهاء من الطعام طلب منها أن ترسم ما يجول بخاطرها وقدم إليها القلم وبعضاً من الأوراق، قامت بالرسم بعد الانتهاء، أخذه منها وكانت قد رسمت دوائر فوق بعضها تشبه الدوامة وبعض الأشكال غير المتناسقة. استنتج جاستين بعض الملاحظات المهمة عن حالتها

حتى أنت لا تصدقني أنت لا تريد مساعدتي؛ لذلك لا أثق بك وبدأت تكرر أرجوك لا تقرب مني لا تقتلني لا تقتلني.

هيا لا تخافي إني بجانبك ولن يقترب منك أعدك بذلك، واصطحبها إلى السرير، وأمسكت بيده وطلبت منه أن لا يبتعد عنها وهي تشد على يده، بقي جاستين يهدئ من روعها حتى غفت ونامت، بقي في تلك الليلة بجانبها، ولم ينم حتى إذا استيقظت لا تشعر بالخوف.

وفي اليوم التالي استيقظ جاستين، ولم يجد سارة على السرير وشعر بالخوف أن تكون قد ذهبت إلى مكان، أو حصل لها مكروه فبحث عنها، فوجدتها في حديقة المستشفى. قال لها:

- لماذا خرجت بدون أن تخبريني بذلك؟

- لم أحب أن أوقظك.

- مرة أخرى لا تفعلي ذلك لقد خفت عليك.

رجعا إلى الغرفة، وقدم لها الطعام ومن ثم أجرى لها تدليكا بسيطاً لجسدها، وكرر قوله. سارة أريدك أن تشعرني بالأمان، وأن تدعي جسدي يرتخي ويرتاح وأن تتقي تماماً أنني هنا فقط إلى جانبك؛ ولأساعدك وأعدك أن تبقي بخير.

بدأ بإجراء الفحوصات الشاملة لها كقياس نبضها ودمها... ويكتب الملاحظات، ووجد أن هناك ضعفاً شديداً في جسدها، ودمها ضعيف وتحتاج إلى التغذية والرعاية بعد ساعات من الفحوصات. شعرت سارة

وكتبها فالتقرير اليومي الخاص بها، جاءت عائلتها لزيارتها، ولكن جاستين خرج قبل مجيئهم، وبقوا عندها لساعات من الليل، وبعد انتهاء الزيارة دخل جاستين إلى الغرفة ورآها تبكي واقترب منها.

- ما بك الآن؟

- اطلع أنا بكرهك، بكرهكم كلكم.

- لماذا تكرهيني؟

- أنا بكرهك وخلص.

وكررتها أكثر من عشرين مرة، وجاستين يستمع لها وبعد ذلك صمتت قليلاً، أنا أحبك وكررها أيضاً بنفس اللهجة التي قالت له بها أكرهك. تفاجأت سارة بما يقول.

- ايش بتقول أنت واحد كذاب ولكنه لم يجبهها.

- هيا حان وقت النوم. قالت له:

- لا أريد.

- لا يجب أن تنامي ويكفي عناد، كم أنت عنيدة، حاولت أن تخرج من الغرفة، ولكنه أمسكها، إلى أين أنت ذاهبة؟

- أرجوك دعني أذهب أنا خائفة.

- اهدئي ممن تخافين؟

قالت: هناك شخص يشعرني بالخوف، وينظر إليّ بعينيه الحمراءوين.

- أين فأشارت بأصبع يدها هناك...

- أنا لا أرى شيئاً.

بالتعب الشديد ذهب جاستين وأحضر الأدوية اللازمة وحاول أن تتناولها، ولكنها كانت تصرخ رافضة. فقال لها:

- هناك خياران اختاري واحداً منها. وما هما؟ قال:

- إما أن أنادي الممرض لإعطائك حقنة، أو أن تتناولي الدواء فنظرت إليه، وقالت له:

- حاضر سأتناوله.

مر الأسبوع بكامل تفاصيله. فكر جاستين أنه لن يستطيع أن يبتعد عنها، وأن يكتفي فقط بالنظر إليها، وأنها بأمس الحاجة إليه، وأن يبقى إلى جانبها كما وعدا لأنها تحتاج إلى الرعاية والمراقبة الدائمة. لكن كيف ذلك؟

استقر جاستين من معتصم الذي أصبح جزءاً من يومه، والذي كان قد انتهى من دراسته في تركيا، وعين أستاذاً في مدرسة سارة ما الذي يتوجب عليه إن كان يحب فتاة؟ يقصد عاداتهم وتقاليدهم فرد أنه لا يملك خياراً سوى الزواج بها وأن يتقدم لعائلتها بطلب يدها للزواج.

- شكراً لك سأفكر بالأمر إلى اللقاء.

- جلس مع نفسه يتذكر حين قال:

أقسم بالرب أن أصون مهنتي وأن أصون حياة الإنسان في كافة أطوارها وفي كل الظروف والأحوال بذلاً وسعياً في إنقاذها من الهلاك والمرض والقلق، وأن أحفظ للناس كرامتهم وأستر عورتهم وأكتم سرهم. وكيف أبوح به؟ ومهنتي تحتم عليّ أن أحافظ على المسافة بيننا.

وصل جاستين إلى المدرسة وأرسل إلى سارة استدعاها؛ لتأتي إلى غرفته فأخبروه أنها نقلت إلى المستشفى. أسرع جاستين وصعد إلى السيارة وتوجه مسرعاً إلى المستشفى، وكانت جالسة على السرير، أخبره الممرض أنها بخير وقدم لها اللازم، فطلب من الممرض أن يخرج. جلس جاستين بجانبها.

- كيف تشعرين الآن؟

- أنا بخير ولكنني أشعر بدوار.

- اطمئني ستكونين بخير.

- سارة أود أن أتحدث معك.

- ماذا؟

- أنا لا أملك سوى خيار واحد بشأنك، ايش... أنا... أنت شو.

صمت جاستين... ثم قال لها:

- لا شيء غداً ستخرجين من المستشفى، وأريدك أن تنتبهي لنفسك وسأبقى أنا إلى جانبك.

في اليوم التالي أفاقت سارة، وكانت تشعر بالتعب الشديد وتحاول الوقوف؛ ولكنها سقطت على الأرض. قام الممرض باستدعاء جاستين، وقام بفحصها إلا أنها كانت قد دخلت في غيبوبة كاملة وعلم أن الممرض نسي أن يعطيها الدواء.

- اخرج قبل أن أقتلك.

لم يكن معه متسع من الوقت للتفكير بما حصل، ويجب عليه إجراء اللازم للقيام بالعملية لها، وطلب من مدير المستشفى أن يهاتف ولي أمرها؛ لإخباره بذلك وأخبروه بتكاليف العملية حيث كانت تكلف الكثير، بالنسبة لعائلتها بسبب الظروف المادية التي يعانون منها، فنكفل جاستين بكل شيء، وبقي توقيع ولي أمرها لإجراء العملية.

استعادت سارة وعيها بعد أسبوع إلى جانبها إلى أن استعادت كامل عافيتها. رجعت إلى المدرسة، وكان جاستين يقابلها ويجلس معها كلما تسنى له، وحاول أن يكون حريصاً على أن لا ينتبه أحد؛ لأنه خائف عليها من أن يعلم أحد أو يصل الأمر إلى عائلتها.

مر أحد عشر شهراً على هذا الحال. وبدأت الأمور تتعقد. ففي أحد الأيام لم يستطع جاستين أن يراها، فاستدعاها للحضور إلى غرفته، وكانت إدارة المدرسة قد بدأت تظن أن هناك شيئاً بين الدكتور جاستين والطالبة سارة من الاهتمام الزائد بها بخلاف الطالبات الأخريات، حيث لم يكن يكف جاستين في يوم أن يهتم بها ويدافع عنها إذا تعرضت للإهانة أو الضرب من الملمات أو الطالبات، وكان يساعدها في دروسها ودائمة التواجد في غرفته.

بعد استدعاء جاستين لها دخلت الغرفة وكان ينتظرها حيث كان جاستين قد أخبر سارة أنه يريد أن يحادثها بشيء مهم، ولكن تقاجأت بجاستين يضع يده على وجهها ومديرة المدرسة تشاهد ذلك؛ لأن جاستين نسي أن يغلق باب الغرفة، (كان صديقه يعلم بمشاعر جاستين

نحو سارة) وأخبره أن مديرة المدرسة شاهدته مع سارة، أرجو أن لا تكون قد أخطأت بشيء. لم يجبه جاستين، وطلب منها أن تخرج بسرعة وحذرهما أن يراها أحد.

خرجت سارة، وبعد يومين كان هناك اجتماع لإدارة المدرسة، تفاجأ جاستين بإخراج المديرة القلادة التي كان يرتديها وتعود إلى سارة - هل هذه لك؟

- نعم، محاولاً إيجاد مخرج لنفسه، لقد فقدتها ولم أجد لها أين وجدتتها؟
- بغرفتك، ونحن يا دكتور جاستين كنا نراقب تحركاتك وعلما بالأمر، وكل شيء أصبح واضحاً، وجعلته يشاهد فيديو له مع سارة لحظة نسيانه إغلاق الباب كان قد تم تصويره خلال مراقبتهم له، صمت جاستين وحاول أن يجد مخرجاً لنفسه، ولكن صديقه بسرعة أخبر المديرة أن جاستين مريض ومدمن مخدرات.

- جاستين.

- هل جننت؟

- فضرب صديقه على قدمه ففهم جاستين.

- هيا لا تتكر فعلتك، ولا تبرأ نفسك لقد ارتكبت جريمة عقابها شديد. لا تقلقي الآن سأخذه إلى مركز الشرطة، وسأقوم بتسليمه لهم وسأتكفل بكل شيء. اقتنعت المديرة بحديثه، وقالت له: أرجو أن لا أراه هنا مرة أخرى. قال صديقه:

- هل جننت؟ ما الذي فعلته؟ أتعلم لو وصل الأمر إلى عائلتها؟
- ستحدث مشاكل لا تحمد عقباها، سيقتلونك وجريمته تستحق العقاب عليها، أرجو منك أن تسافر بسرعة أنا أحبك وأخاف عليك.
- لكنني أحبها ولن أستطيع أن أبتعد عنها إنني مجنون بها أرجوك.
- لا وقت ولا أستطيع مساعدتك بشيء سوى التحدث إلى عائلتها سيكون أمامك فرصة إقناعهم والزواج ممن تحبها.
- أنت شخص رائع وتستحق كل الاحترام والتقدير.
- قال له جاستين: أشكرك سأفكر بالأمر سأسافر، وأنت أيضاً شخص يستحق الاحترام وأشكرك جداً.
- لكن الأخبار تناقلت بسرعة، ووصل خبر لوالد سارة أن ابنته لها تصرفات غريبة داخل المدرسة.
- قدم جاستين إلى المدرسة في اليوم التالي، وشاهد سارة في استراحة المدرسة كانت تبدو شاحبة ومتعبة. تقدم جاستين وكانت تجلس بقرنها معلمتها. وكانت هذه المعلمة تحبها وتهتم بها وتعلم أن جاستين طبيب نفسي. نظرت إليه، أيها الحقير النذل، وبدأت تتفوه بكلمات أثارت عصبية جاستين الذي حاول قدر المستطاع أن يتحكم بأعصابه، ولكن خلافاً كلامياً نشب بينهما، وبدأ صوتهما يعلو ويشد، وكانت المعلمة تمسك بسارة.
- هيا أريدك أن ترحل عني إلى الأبد، صعق جاستين بما سمعه.
- ماذا هل أنت مجنونة؟

- وبقيت تردد ما طلبته منه، لكن جاستين فقد أعصابه كلياً برغم أن صديقه كان يحاول تهدأته، ووصل إلى أعلى حد من العصبية، فأمسك خديها بيده بكل قوة، وقال لها: أيتها المجنونة نسيت حياتي السابقة، وكنت لك كالخادم أهتم بك، وأعطيتك كل ما تحتاجينه من الحب والحنان؛ لكنك لا تستحقين كل هذا، فأنا لم أتوقع منك هذه المعاملة السيئة، قالت له: ما دام هذا رأيك أنا أكرهك وبشدة، وأريدك أن تبتعد عني، وزادت قبضة يد جاستين على خديها بقوة، وقال: لا تحلمي بذلك لن أفعل هذا سوى بأحلامك، أنا لست دمية بيديك، ولا مشاعري لتنتسلي بها أفهمت أيتها المجنونة، لن أدعك وشأنك بهذه السهولة. هيا اغربي عن وجهي لا أريد أن أراك بعد الآن أمسكت المعلمة بها وذهبتا.
- بقي جاستين مع صديقه، وبدأ يبكي بكاء شديداً وشعر بدوار في رأسه ووقع على الأرض. أفاق جاستين بعد فترة قصيرة واصطحبه صديقه إلى غرفته، وجلسا على الأرض وبدأ جاستين كالطفل الذي يريد أمه أن تبقى بجانبه. قال صديقه: لا تملك إلا خياراً أن تبتعد عنها، دعك منها ستسبب للفتاة الأذى ولنفسك أيضاً.
- هل تعتقد ذلك؟ لكنني أعشقها ولا أستطيع ذلك، ولا أستطيع العيش بدونها وإن ابتعدت عنها لا أدري ما سيحل بي.
- اهدأ سنجد حلاً.
- صمنا لفترة، وإذ بصديقه يقول له: اسمع، عندي حل أن تذهب إلى عائلتها بنفسك وتخبرهم بذلك، وأنه لم يحصل بينكما شيء سوى

أنك فقط كنت تقابلها وتشرح لهم ما حصل بالضبط، وأنك أنت الطبيب الذي كنت مشرفاً على حالتها؛ لأن عائلتها لا تعلم أنه هو الطبيب المشرف على حالتها؛ لأنها كانت منحة تطوعية، وتصطحب معك بعضاً من رجال الأمن؛ لتتأكد أن لا تقوم عائلتها بأي خطأ بحق الفتاة، وتحصل منهم على وعد بأن لا يفعلوا بها شيئاً. قال جاستين: دعني أفكر بالأمر. لا وقت لديك اذهب الآن إلى الفندق وارتح قليلاً، وفكر غداً صباحاً...

داهمه الحزن وصورة صديقه تطفو فوقه في سكون... شعر بحاجة عارمة إلى استشارته، لطالما كنت لي اللاوعي.

وصل جاستين إلى منزل الفتاة بصحبة صديقه، تفاعلاً والدها بوجودهم؛ لأنه لم يكن يعرف جاستين إلا بالاسم فقط، وحاول جاستين أن لا يريه ملامح وجهه أو يدقق فيها، وطلب معتصم من والدها أن يقوم بإحضار الفتاة. فاستغرب من ذلك، وسأله عن السبب وأخبروه أن هذا الشاب (يقصد جاستين) هو الطبيب الذي كان مشرفاً على حالة سارة، ويريد أن يتحدث معك. تفاعلت سارة بوجود جاستين وشعرت بالخوف الشديد من عائلتها، فبدأ معتصم بالحديث عن جاستين وظروف ما قد حصل بين جاستين وسارة بأن جاستين لم يكن سوى طبيب يهتم بالمريض، وأن هذا واجبه وكان جاستين يقوم باستدعائها أحياناً إلى غرفته في المدرسة؛ ليقوم بفحصها أو إعطائها الدواء ولا شيء آخر، وأن مديرة المدرسة تكره جاستين وحصلت مواقف بينهما؛

لذلك كانت المديرة تحاول أن تتهم جاستين بأي شيء للتخلص منه، اتفهم ذلك لكن لم أك أعلم أنك الطبيب كانت ممرضة تقابلني وتقدم لي تقريراً عن حالة سارة. أما عن جاستين فلم ينطق بكلمة ويحاول أن لا يفقد أعصابه...

وأخبرهم صديقه أن جاستين يريد أن يرى سارة للمرة الأخيرة ويأخذها إلى المستشفى ليتأكد من حالتها الصحية... ما كان أمامه سوى الموافقة...

وعند وصولهما إلى المستشفى، قام جاستين بفحوصات شاملة لها وتأكد من استقرار حالتها الصحية وأنها بخير. شعرت سارة بالتعب وغرقت في النوم... بقي جاستين بجوار السرير الذي كانت سارة تنام عليه يراقبها، ولم يستطع النوم وهو يفكر ماذا سيحل به عندما يرحل عنها؟

في الساعة الخامسة صباحاً اقترب جاستين منها وجعلها تستيقظ. - هيا استيقظي لتتناولي الفطور.

توقف أمامي كمن اتخذ قراراً صارماً، وفي حركة انسيابية قرب وجهه من وجهي يريد أن يقبلني دفعته بقوة قائلة:

- ماذا تفعل؟ ليس لك الحق في ذلك.

- لماذا؟

- لأنك محرّم علي.

وما الطهر؟ هو كمون روحي وعاطفي حيث نشعر به، وهو طريق الجمال وما للجمال غير الحب والجمال لا يحدث دون ممارسته، فهو ثروة الحياة، أنا أعشق الروح التي تدمرني، ولكنها شرط السفر في الجمال.

- أحبك لا زلت لم أستوعب بعد، وأتساءل كيف تغدق عليّ الحياة في أول لقاء حب، قدر محتوم لم أكن أطلب من الدنيا أكثر من أن أضع رأسي على صدر شخص يجعلني وطنه... يا لنجدة الدموع أمامه! لم يتكلم ولم يسألني عن السبب، كان صمته خشوعاً أمام دموعي. ستشهد هذه الغرفة يوم نخبه على ليلة العمر. وما يلزنا غير إقدام نحو البحر، بعد حرق كل السفن، وإن استطعنا فسنحرق زبده المعشوق، هو إبحار دون احتمال العودة إما أن نعبر أبطالاً، أو نموت شهداء الأمواج.

ابتسمت حين أضافت: أحبك كقمر يسطع في حلم بسيط يخلو من اعتبارات الحياة أحبك فقط بعفة.

لقد أصبحت الساعة السادسة والنصف، فكان موعد رحيل جاستين. مدّ جاستين يده لإمساك يدها لكنها رفعت يده بسرعة. كم تمنيت أن تبكي على صدري، أن أتحسس جسدها الممزق. قالت: ستلتئم جراحي أخاف رحيلك، أن تسمع صراخي فتنهار، فلا شيء أقدمه لك سوى منفاي وعالمي الخيالي، وبعض القصائد الهزيلة، وعمر خائب، سوف يتكأ على عمرك وأيامك، ليس عندي سوى حقيبة بها

- أعلم، وأعلم أن الذي قرر هذه العادات لا يفقه في الحب شيئاً. كأن الحب يحتاج لإذن من أحد...

- هذا قرارك وحدك، فعلاقتك بي هي خبايا روحك، فأنت هش أمامي.
- بالعكس لست هشاً معك، أنا قوتي بك.

انفعل بشدة كمن يشعر بظلم كبير. قالت محاولة تهدئة انفعاله: لا أحد ملاك، كل إنسان قد يستغل نقطة ضعفه فيه، لكن هذه علاقة محرمة وغير سليمة، لم يقنع لما قالتها، خلق الإنسان القوانين ليخرقها يا عزيزتي. نحن في تطور، واكتشاف دائم، ونعطي أنفسنا حقوقاً لا يستحقها أحد سوانا. يجب أن نستغل خوفنا من الموت، وما قيمة حياتي دون إيمانك ومن ثم موتي. إن كان في حبك موت فهذا ما يجعلني أتمسك بك أكثر. يكفيك أن تفتحي التلفاز كل يوم لتعلمي كم أتعرض لحروبك، وبتر أجزائي بسببك. كيف لا نضع قوانين تمنع البعد؟ والوحدة القاتلة، والفراغ العاطفي يولد الحروب، والاكتمال باسم العادات والتقاليد. ألا تعلمين ما أشد الآلام! يا لهذه النفس البشرية كيف تتألم حين تتخلى عن الحب. واصل كلامه وقد تخلى عن حماسه.

الخلاص الوحيد من الإغراء هو الاستسلام له، فسأقاومك في هذه الفترة لصالحك ولنا حديث آخر. ولن أسمح لأي عادات أو تقاليد أن تمنعني عن ممارسة حبي معك. أن نعيش حلماً يعني أن نشعر بالجسد كوناً قائماً، لا تحده ضفاف حيث يتماهى بالمطلق. رواية لحظات لا غير.

فراق وأمل

ليلة ظلماء، غاب القمر بكيت النجوم خوفاً، أنتِ هو القمر دون النجوم الهاربة، أغار منها عليكِ مبتسم الثغر أراكِ أبكي لكِ وتبكييني، تتسكعين بأوردتي، طوبى لي أمسيت معك صباحي إليك معبق بأوتار الحب كهتان أنت في بعدك، جرحٌ أنا بملامح إنسان،

ليلة ظلماء، أنتِ القمر، تهرب النجوم من غيرتي!

تمر علينا أوقات يغرد القلم في دواخلنا يخلق منا إنساناً قوياً، صداقتي سارة أنه لعالم جميل، إن العيش بين الكتب لأمر يثير بنا الحب والأمان يثبتنا بالحياة ويخلق لنا فرصاً جديدة، قضى جاستين معظم وقته في المكتبة التي تواسيه في غربة قلبه مكتبة أتاتورك، تذكر جاستين صديقه، جهز نفسه ليكون خلال أيام في لبنان بعد إنهاء أمورٍ متراكمة عليه.

كانت تفاصيل مغادرة جاستين تركيا إلى لبنان مملة حتى أنه لم يكن لديه الشغف ليكتبها في يومياته، استقبله صديق نيكولاس الذي كان قد أخبره عنه في منزله، ليختصر وجوده في لبنان، أخبره عن الفتاة.

في اليوم التالي ذهب جاستين مع راسل إلى عنوان بيتها لكن لم يجب أحداً على قرعات باب المنزل خرج أحد الجيران وأخبرهم أنها توفيت قبل أيام.

- وماذا عن الفتاة؟

بعض الملابس والكتب، وليس عندي سوى حبٍ عميقٍ أحمله لك، ولكنه ليس بديلاً عن كل شيء.

ونظر إليها نظرات العاشق المجنون، تفضلي إنها لك كوني لي معها!
هيا بنا.

- انتبهي لصحتك.

خرج جاستين مسرعاً ووصل إلى مكان إقامته بسيارته مع صديقه وحضنا بعضهما، وقال له:

- جاستين لقد انتهى كل شيء. ماذا الآن؟

- كم أتمنى الموت.

- لا ستقف مرة أخرى وإن كان لك نصيب فيها ستتزوجها، قدم جاستين مفتاح سيارته كهدية له وأخبره أنه أحبه ولن ينساه...

لا لقد كان يضع لثاماً على وجهه، وبيت جدتك قالت: لا، لا أنكر
فكانت تبدو تصرفاتها كالطفلة تلك البراءة فيها ذكرته بسارة. لم يترك
هذه الفتاة وكانت ترافقه كالظل وأحبها حباً أخوياً ويعاملها بحنان الأخ،
جعلها بمثابة عائلة له، وكان يشعر بالسعادة؛ لأنه قد أصبحت له عائلة
تشكله وميريانا كما كان نيكولاس. وأصبح رئيساً لاتحاد أطباء بلا حدود
العالمي.

- بعد دفن جدتها لم نعد نراها هنا
- يا إلهي ما العمل الآن؟
سنقوم بتبليغ مخفر الشرطة لعلهم يساعدوننا بالبحث عنها
استفسارات هنا وهناك وشهادات أشخاص كانت من ضمنها أن
ميريانا كانت بأكثر الأوقات تتسكع مع شاب من الواضح أنه غير ملتزم
أخلاقياً! مع تواصل البحث وجدوا في أحد أطراف الشوارع فتاة ملقاة
على قارعة الطريق، تكهنوا أنها قد تكون هي ميريانا.
الفتاة بقيت في غيبوبة لخمسة شهور وجاستين يرهاها ويهتم بها،
ولا يتركها للحظة إلا عندما يضطر لذلك بعد هذه المدة، أفاقت الفتاة
من الغيبوبة، وأجرى لها فحوصات، فاستنتج أن الفتاة تعرضت لجريمة
اغتصاب وضرب مبرح وُرِّجَ بها في الشارع.
عمل جاستين ليل نهار، بعد جلسات من التنويم المغناطيسي بدأت
الفتاة تستعيد صحتها وعافيتها؛ لكن حالتها النفسية متردية وكانت تبلغ
من العمر السادسة عشرة، واستطاع جاستين أن يحصل على بعض
المعلومات عنها من خلال جلساته معها، فعرف أن عائلتها متوفاة،
وهي وحيدة لا أحد يرهاها وكان جاستين يقوم ببعض الصعقات
الكهربائية لدماعها حتى تستعيد ذاكرتها.
وبدأت الفتاة تستجيب للعلاج وقد استعادت ذاكرتها... وحصل
جاستين على تفاصيل حياتها وأخبرته أن شاباً قام بخطفها من بيت
جدتها التي تقطن فيه وقام باغتصابها، سألها هل تذكرين وجهه؟ قالت:

وأخيراً

ألا لأجلك أصبح جحيماً أنهي كل شقاق، وغيرك لا خيار ولا اختيار في الزوال، وشتاتي معك قمر، في أنصافي أنت تكتمل، وفي اكتمالي حُبك مبجل، أسجد كلما مر طيفك، عليّ أجذك في العدم وكيف أفقدك في القوائد عنوانها مبتورة الفؤاد وصلابة صوان ينزف بيد مقاوم صنيدي أنتِ أنا وأنا الجحيم أنهي كل شقاق.

حديثه مع صورة سارة التي كان يحملها ولا تفارقه جعله يهاتف معتصم ويطمئن عليه ليخبره أنه سيعود قريباً ليقابل عائلة سارة.

- تتحدث بجدية أم تمازحني.

- ولماذا أمازحك؟... نعم.

سندهب، ونقابل عائلتها، ونتحدث، ونحاول إقناعهم. جاستين أخبره بالأمر قبل يومين من قدومه إلى غزة، تفاجأ الجميع من وجود جاستين. تحادثوا طويلاً لساعات من الزمن اعترضوا جميعهم على فكرة زواج الأجنبي من سارة.

وقام والد سارة بطردهم من المنزل لكن بحكمة وطريقة التعامل الراقية استطاعا أن يقنعا بأنه مسلم وشاب ذو أخلاق عالية جداً، فهو طبيب عالمي يستحق منا الاحترام. بعد جدال طويل بين عائلتها قرر والدها الموافقة؛ لأنه شعر بأنه أخطأ بحق ابنته ويريد التكفير عن ذنبه، ولم يقصر الطبيب جاستين معه. فقال إن شاء لنتقابل بعد أسبوع؛ لعقد القران.

مر أسبوع قدم جاستين إلى المحكمة لعقد القران قبل حضور سارة وعائلتها، بعد لحظات وصلوا إلى المحكمة وعقدوا القران، وكان الشيخ قد أوضح بعض الأمور لجاستين بخصوص العادات والتقاليد المحتممة عليه وضرورة الالتزام بها، واصطحبوا جاستين معهم إلى منزل سارة، وأوقف جاستين سارة والجميع يشاهد، ثم انحنى عند قدميها واحتضنها بقوة لفترة طويلة بعض الشيء وهمس لها: سيبقى العالم أمام رائحتك لا شيء وحدك صوت الحب، ما أروع الرجوع إليك!... ما أروع الرجوع إليك!... شعرت لحظتها كم كنت أفقد رائحتها حرارة جسدي من قبضة ذراعيه. وقلت: أرجوك لا تتركني من جديد حضورك انتصار للحب، به سأعزف لك لحناً جنونياً لا يشبهه شيء سوى جمال روحك، وبريق عينيك وسأكتبك قصيدة لا تنتهي. فلا تغضب هذا القلب الحاني، ولا تشعره بضعفه القسري، ضع رأسك على كتفي وأخبره أنك هنا ترتاح ولتتعلم معنى الحب من أهات جنوني.

مرت الأيام زار جاستين سارة في بيتها الزيارة الأولى، فعاملته معاملة رسمية، استطاع جاستين خلال شهرين من عقد قرانهما بمعاملته الحسنة لها وخبرته بتفكيرها أن يجدد العلاقة بينهما. وكان والدها لا يقبل دائماً بالخروج من المنزل، أو يجلسان لوحدهما لفترة طويلة، وهذا ما جعل جاستين لا يشعر بالراحة.

ذات يوم خرج جاستين معها وجلسا وتحدثا، وأخبرها عن تفاصيل رحلته بعد فراقها، وأنه أوفى بعهده لها أنه لم يلمس امرأة قط، وبعد أربع

سنوات أصبحت أبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، وأنت تبليغين العشرين من عمرك. لقد أصبحت فتاة ناضجة وازددت جمالاً، ماذا؟ أنا جميلة دائماً! فضحكا وعرفها على ميريانا وسعدت جداً بلقائهما حيث أصبحت ميريانا فتاة ناضجة بنفس عمر سارة، وأصبحتا صديقتين مقربتين.

عاش جاستين سعادة غامرة، وذهب إلى المدرسة ليلقى صديقه، فعندما رآه بدأ صديقه بالبكاء وركض مسرعاً واحتضنه، وكان جاستين قد حمله وبدأ يدور به، قد أصبحت ما تمنيته. بقبلة سكب فيها كل رحيق الشوق المعتق، ودعها ولا وداع وإنما لقاء.

عاد إلى تركيا لينال درجة الدكتوراه، وخلال عام من التعب والدراسة قدم جاستين أبحاثه لدرجة الفلسفة، وقدم بحثه الذي كتب فيه عن كل مجهوداته العلمية من حين انتهائه من مرحلة الجامعة. لقد أخفى جاستين رحلاته جميعاً حول العالم واختياره لغزة كمدينة يستقر بها؛ لتقديم الدكتوراه وحصوله عليها.

حاز جاستين المرتبة الأولى على مستوى العالم، كأول طبيب شاب في العالم باحتفال باهر جداً، شمل جميع رؤساء العالم، والأطباء، ووزراء الدول، وخلال إلقاء جاستين لكلمته النهائية التي شملت على فيديو يحتوي على بعض المقتطفات المهمة من المواقف التي عاشها خلال رحلته حول العالم وبعض الشخصيات التي يُكنُّ لها الاحترام.

كانت أمه في مقدمة الفيديو، ونيكولاس، ورئيس تركيا، وبعض القيادات من الحكومة في غزة، ومعتصم، وميريانا. وأخيراً أنهى العرض بصورة لسارة، وكانت ترتدي لثام الكوفية على وجهها. فجأة إذ بوالده يقف وراءه وينحني له بالبكاء، ويقول له:

- سامحني يا بني سامحني... ساعد جاستين والده على الوقوف، وقال له:

- لا يا أبي لا داعي، أنا من سينحني لك.
- كنت سبباً في بكائي يوماً يا والدي ولكنك العيش الرغد الذي حفظني من الضياع، سوف تظل رائحتك تطفو في قلبي، إن كان قدر الحب العظيم أن يطوقه الألم، فلنحتقل الليلة.
- ولتكن بروعة سارة يا والدي.

لو أمكن لاستمعت إلى صوت الكون وأنين أعضائك، اليوم بكل ما تخلفه لدي مرارة فقدان لتوأم الروح ومهجة القلب، ولكنني ما عشت من قبل حبك، وإذا كان لا بد للحياة من حب، فأنت ستكون هذه المرة حارسي ولنترك الماضي للماضي.

رجع جاستين إلى غزة بعد انتهاء حفلة حصوله على درجة الدكتوراه مع والده، وبعد أسبوع أقام جاستين حفلة زفافه، كان زفافه يشبه مهرجاناً، حضره الآلاف من المدعوين. حصلت سارة على الشهادة الجامعية في تركيا، وحصلت على شهادة الماجستير في تخصص علم النفس. ومن ثم قرروا أن يستقروا في غزة، قام بإنشاء

- لا أعلم.

- أنت لا تعلم الكثير عنها.

وأخبره جاستين بتفاصيل ما حصل معها فتردد، وأعطاه جاستين فرصة ليفكر وأنه يجب أن يتأني بقراره، وأخبره أنه لا يرجو له سوى الخير دائماً، فأنت نعم الصديق الأول بعد نيكولاس.

بعد أسبوع جاء صديقه إلى جاستين يبكي، وقال له: لا أستطيع أن أبتعد عنها أنا أحبها، فوافق جاستين وزوجهما. وعين جاستين صديقه مديراً عاماً للشركة التي يترأسها جاستين.

وظهرت سارة في أول ظهور إنشادي وطني لها كبطلة خيالية ترتدي الثوب المطرز الفلسطيني، ووجهاً مغطى بالكوفية وعيناها ساحرتان باللون العسلي.

وهكذا أصبحت فنانة القضية الفلسطينية، وكانت لها أدوار كثيرة على الصعيد السياسي الفلسطيني، وبعد سبعة أعوام أنجبت سارة توأمين ذكر وأنثى سمت الأنثى قدس والذكر وطن.

- جاستين.

- حياتي!

- هل لي بسؤال؟

- لا أحد منا متمكن كلنا نغفو على نص مبتور، أليس كذلك؟

- صحيح

شركة؛ لتشغيل الشباب في غزة، وفتح عيادة مجانية داخل مستشفى الشفاء؛ للعلاج النفسي، وصيدلية مجانية تحمل اسم نيكولاس.

كان تعامل جاستين ذي الشخصية الكاريزمية التي اكتسب أغلب مواصفاتها من صديقه الأستاذ في المدرسة التي يعمل بها؛ لأنه يتميز بشخصية كاريزمية ما بين الحزم واللين، يقدم كل ما يستطيع من الدعم المادي لكل من يطلب منه المساعدة، ولا يقدم المساعدة لأي شخص من ناحية مادية، وإنما يتأكد من الشخص هل هو فعلاً محتاج؟ أم يستطيع العمل ويريد كل شيء بسهولة.

وأصبح له أعداء كثيرون ومنافسون، وكان ذا عقل راجح، وحكيم في تعامله يعطي مساحة للصدقة، والعلاقات الاجتماعية، ويؤدي ذلك بحدود.

نال محبة الجميع، وكان أغلب المشاريع المقدمة في غزة تطوعاً منه للارتقاء بالشباب وركز على هذه الفئة؛ لأنهم بحاجة إلى التوعية، وهم عماد المستقبل.

وبعد ثلاث سنوات اتصل صديقه وأخبره أنه سيتحدث معه بأمر ضروري فتقابلا، وكان متردداً في الحديث.

- جاستين.

- أخص الأمر ميريانا؟

- كيف علمت بذلك؟

- أنا أعلم أنك تحبها حباً شديداً. وهل تحبك؟

إلى من كان له الفضل:

بكسرة الخبز الحزينة محوت شتاتاً بين ثنايا قلمي. أقسمت معك على الوفاء بأن يكون الأمل موجوداً، والحياة تساندني ولن أعفي الحروف، وسأجعلها لك هذه المرة دون إسهاب، يا من علمتني بعضاً من كل الحروف، وأعدت لي الأحلام رسالتي لك. وإن كانت حواجز القدس أسهل طرق القلوب بأن يكون الشكر موصولاً، وإن نسي الزمن مجهوداتي. وعاهدت الله بأن يكون اسمك مجهولاً ما حييت لكن لم يغن ذلك على تراص الحروف لك وانحناءات نفسي وبنجاحي بأن يجعلك الله آمناً مستأمناً. عيناك للصباح باسمه للحنز مستعصية يا من كنت لي جسر شرف المحاولة والشرف بك أكبر من عيون تصدح لخصلات الشمس على جبين مغضن... لك إهداء روايتي وحدك الحروف. وفي الشكر لك وحدك العرفان يا من نطقته أستاذي يوماً.

3:51م

الأربعاء: 2016/7/20م

ليندا ديب الأعرج

إذن أنا إن لم يكن الوطن وجهتي في الحياة محرماً علي أن أمارس حقوقي الشرعية.

أريد أن أعيش مع الحرية ومطلق الحرية في ممارسة كامل حقوقي دون الخوف من نظرات المجتمع أو من نظرات حياة بائسة والسعي إلى الحرية في وطني غزة تستحق الاحترام، فأنا لا أهاب الموت بين ثنايا جنة الله أراك تتاديني.

